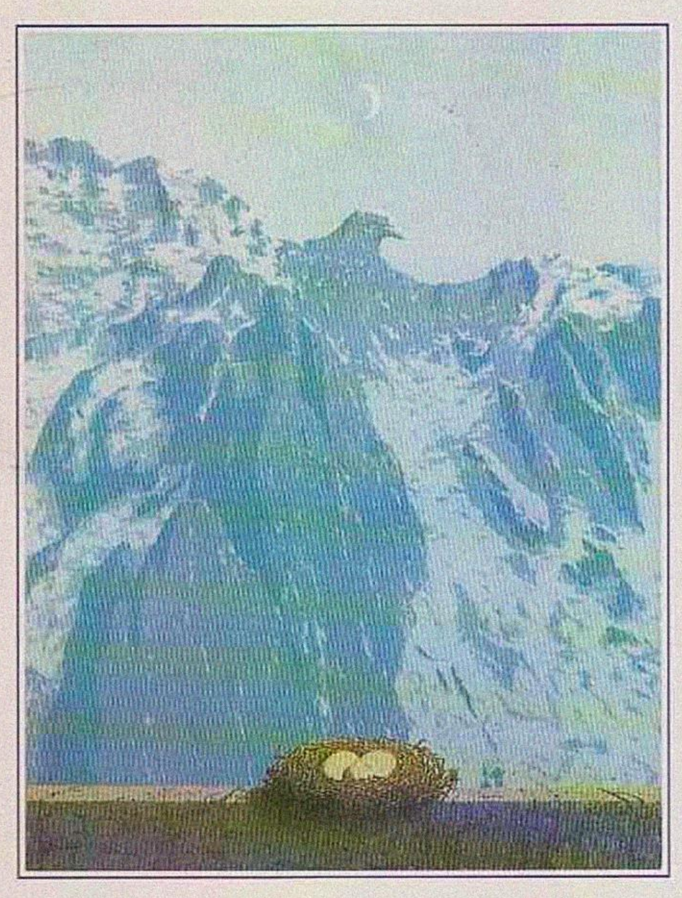
عبدالله العروي







المركز الثقافي العربي

علي مولا

رواية

اليتيم

الكتاب

اليتيم

المؤلف

عبد الله العروي

الطبعة

الأولى، 2001

عدد الصفحات: 176

القياس: 14.5 × 21.5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 ـ 307651

فاكس: 305726 ـ 2 212+

Email: markaz@inter.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+

عبد الله العروي

اليتيم

المركز الثقافي العربي

وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير مُعْرب ولفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده.

الجاحظ

فوصلا إلى مرج أفيح فيه الغزلان تمرح وقد اخضرت منه الجوانب وسكنت فيه الأثمار من كل جانب وأزهاره كبطون الحيات والطيور فيه عاكفات وجداوله تجري مختلفة الصفات.

ألف ليلة وليلة

التاريخ رواية واقع والرواية تاريخ متوقع.

أندريه جيد

1

البيضاء

- 1 -

انتبهت اليوم على الساعة العاشرة، ككل يوم، سوى يوم الأحد. لاحظت أن شيئاً غير عادي يخيم على الغرفة. قمت وفتحت النافذة المطلّة على الشارع ومقهى **المارنيان** فرأيت أن المصابيح مضاءة وأن الناس يمشون ببطء ملفوفين في معاطف وجلاليب صوفية. الجو مظلم، ليس قاتماً، بل مظلم والساعة العاشرة. أحببت دائماً جو نونبر، السماء المبلدة بالغيوم، الغربي الذي يهب بلطف، اللون المائل إلى الرمادي، لكن جو اليوم، ليس رمادياً، إنه مظلم كأن نسراً من النسور العظام غطى بأجنحته المدينة وحجب عنها النور.

ليس اليوم كالأيام السابقة ونفسي ليست اليوم كما كانت أمس وأمس الأمس. لبست صدرية بياقة وجاكتة جلدية وسروال ملف مفتول ونزلت لأرى المدينة في ثوبها الجديد. تجاوزت مقهى **الواحات** حيث أشرب عادة قهوة الصباح وتنكبت مطعم **بريطانيا** حيث أتناول وجباتي، وتابعت الشارع الكبير قاصداً ملتقى

المدائن. أمشي في أزقة البندقية (ما ذهبت قط إليها)، في ممرات تريستا (ما ذهبت قط إليها)، في شوارع جنيف (ما ذهبت قط إليها)، على كورنيش الإسكندرية (رأيتها في بياض الصيف فكانت غير الإسكندرية). ماذا حصل بين البارحة واليوم؟ لم أعد أحب هذه المدينة. كنت بين سكانها الوحيد الذي أحبها فعلاً. غيري يعيش فيها ويستبطئ يوم فراقه لها ورجوعه إلى منبع وجدانه. غيري يعرف أنه لن يغادرها أبداً ومع ذلك يرفض أن ينتمي إليها. وأنا أحببتها منذ طفولتي في صور متعاقبة: ساحة القنصلية، درب بوطويل، مقاهي فردان، درب الإنجليز، سينما القوس، طريق المسبح البلدي، كنت أقول إنها الإسكندرية وبيروت وأثينا في حيز واحد. أنا فيها وإليها إلى الأبد. اليوم أظلم الجو وحجب السماء وأصبحتُ مثل غيري أنسحب من البيضاء وألتجئ إلى شوارع تريستا وجنيف. أتلو رغماً عني شطر بيت أعجزني معناه: **ومبلغ نفس عذرها مثل مُنجح**. لا أتذكر صدر البيت فيغيب عني معناه الحقيقي وأطبقه على نفسي بدون مبرر. ممن سمعته؟ أين قرأته؟ نداء؟ انكشاف؟ والأسطوانة تدور وتدور وتدور... مثل منجح... مثل منجح..

ـ 2 ـ

كسفت الشمس في عهد النبي فقال الناس حلّت الساعة.
سهير، سلمى، آمال.. نعمان، معن، عدي. أجوب الشوارع أترنم بأسماء لم يعد لها مسمى[1]. أستشعر اليوم ما شعرت به

قبل خمس سنوات وقبل ثلاث سنوات حين ضاع الأمل وحكم القدر أن اليتيم يتيم أبد الدهر.

- 3 -

مقهى **الفوكس** على الساعة العاشرة والنصف. فارغ تقريباً إلا من الزبناء الذين لا يبرحونه واتخذوا منه مأوى ومنزلاً ومحل شغل: بائع اللحوم وموزع أوراق اليانصيب وبائع بطائق القمار على سباق الكلاب والمخترع. ليس المخترع شخصية من شخصيات الإسكندرية أو أثينا أو نابولي، إنه شخصية بيضاوية، يملأ مقهى **الفوكس** بجداله الدائم مع الأميين والمثقفين، يتكلم في كل علم ويخطط في كناش أزرق آلات عجيبة، غائصة في أعماق البحار أو طائرة في الفضاء بلا محرك ولا سائق. يقول لطلبة المدارس الثانوية: قتلكم الشك لأنكم تعلمتم شذرات من الفيزياء والكيمياء وقانون **كارنو**، لكن اسألوا أساتذة الفلسفة: عن منبع القوانين الطبيعية، الحواس أم العقل، الطبيعة أم الإنسان، إسألوهم عن نظرية **كانط** ونظرية الرازي. أنا أنطلق من عقل غير العقل الحالي، عقل السماء السابعة، بل من عقل السماء الأولى القريبة من الباري، من عقل فعال، متعال، صقيل، واع بذاته، فينقلب كل شيء: الماضي إلى مستقبل، الحديد إلى ذهب، الأسفل إلى فوق، الثقل إلى خفة. يقول الشيخ ابن عربي إنه من غير المستحيل أن يخلق الإنسان إنساناً بلحمه ودمه، بحواسه وعضلاته ومفكرته. إفهموا هذه النقطة يفتح الله عليكم أبواب

المعرفة النافعة. ماذا يقول علماء اليوم؟ إن الكون بدأ كانفجار نووي وان أصداء ذلك الانفجار الأول ما زالت تسمع إلى الآن بعد ملايين السنين وان المادة ما زالت تنتشر في الفضاء بسرعة متزايدة. هل تتصورون هذا الانتشار اللامتناهي؟ هل تعقلونه؟ العلماء أنفسم لا يدعون أن هذا الاستنتاج معقول. أنا أقول إنه لا يتعلق بواقع الطبيعة ولكنه ناجم عن مستوى عقولنا الآن وما ندركه من الفضاء ومن الزمن. لو أدركنا الزمن بكيفية مختلفة لتوصلنا إلى نتيجة أخرى. مثلنا مثل البعوضة... طلب مني المخترع مراراً أن أقدمه إلى زملاء ليكتبوا عنه في صحفهم. وعدته ثم أخلفت فصدّ عني. واليوم أتساءل لماذا لم أفتح له أبواب الجريدة. كلامه معقول ولعله أدرك شيئاً. الواقع أنه درس العلوم ونبغ في الهندسة وعندما تقدم إلى الباكالوريا وعمره ستة عشر عاماً قال المعلقون إن الوطن لم ينجب تلميذاً أذكى منه منذ أن عرف العلم الحديث. ثم دارت الأيام وتحوّل من عالم إلى فيلسوف. لا أحد يرى نفسه مسؤولاً عن إجهاض هذا النبوغ، أن يتطور النبوغ إلى فلسفة والفلسفة إلى **تبهلالت**، شيء طبيعي عندنا، بل منا من يقول: من أين له ذلك؟ هذا بلاء! الشارع فارغ أمام مقهى **الفوكس** ولا زبون عند بائع الحليب والحلويات جنب صيدلية باب مراكش. الريح **تنفنف** تحت أعمدة عمارة **الفوكس** وأسد **المترو** فوق الصيدلية يسمع صرصرة رنّانة. لا أرى من مقعدي **حانوت** الكتاب المقدس المطلّ على الزنقة المؤدية إلى باب مراكش. منذ أن عرفت الحانوت لم أر قط رجلاً دخل إليها أو سأل عما فيها. هكذا يكون الإيمان.. لماذا

لم أكتب مقالاً تحت اسم مستعار بعنوان (علمنا وعلمهم). يقول البربهاري[2] إن العلم حقيقة الخلق ينكشف عن وحي وما سواه صناعات نافعة فتقبل أو ضارة فترفض. ويقول التوحيدي[3] إن العلوم نواميس الدنيا تدرك بالفحص العقلي وتتولد عنها صناعات كلها نافعة. علم البربهاري ثابت جذاب، علوم التوحيدي متغيرة ينفر منها أصحاب الصناعات الذين يريدون اقتصاد الوقت ويبحثون عن نواميس يتكسبون بها لدى الرفيع والوضيع. ويحرق التوحيديّ مؤلفاته.. يا للخسارة!.. إمسح دموعك. لا تحزن على التوحيدي. أحرق كتبه بعد أن نسخت وبعد أن ذاع صيته في الأقطار. لولا ذلك لما سمعت باسمه. الذاكرة آفة. يمحى المسجل على شريط. ولا ينسى المخزون في الذهن. لا بد من حيلة. مع الإلكترونيات اليوم. حتى قبل الإلكترونيات كانت حيل كثيرة يعرفها أجدادنا وآباؤنا. لكنني أرفضها. لماذا؟ لأني أحترم نفسي. اليتيم يحترم نفسه، خاصة في الأيام المظلمة، عندما يفكر في تريستا وجنيف، اليتيم..

- 4 -

«أسّي ادريس، عندي بْراة، هذه مدة.

- بْراة من؟

- جا بها حميدة. تعرف حميدة؟ الخدام في الوازيز[4]. جا يومين، واليوم الثالث، كتب فوقها كل شيء وخلاها عندي.

- أين هي؟

ـ خليتها في الدار. بقت في جيبي. اليوم يجيء غداً يجيء. حتى بدلت **الكابوت** ونسيتها في الجيب. غير كُن هاني البال. وقت ما جيت تلقاها هنا.. مضمونة.»

ـ 5 ـ

الميادين في البيضاء قليلة أو قل منعدمة. لهذا ساكن البيضاء غير مرتبط بمدينته. الميدان عالم مقفل مثل مراح الدار والبيضاء مدينة مفتوحة على المستقبل غير المتناهي. في هذا اليوم المظلم، في هذا المقهى الفارغ، أطل على شارع صامت وأتنكر لمدينة المستقبل، آسف لانعدام الميادين فيها. الميدان الوحيد الذي يستحق هذا الاسم أمام مقهى **القدح**. هناك توقفت علية يوماً من أيام نونبر لتكلمني عن حياتها البائسة ثم قطعت زقاق ابن دحان[5]، قائد الصديقية السابق. مرت أمام عمارة **الفوكس**، اجتازت شارع الصديقية وتابعت السور لتصل إلى دكانها في باب مراكش حيث تبيع العقد والصدف والخيوط. علية اسم رنّ في أذني سنوات وسنوات قبل أن يحل في شخص امرأة شاحبة ملتفعة بمعطف مدادي. سمعت وأنا طفل ألعب في **الصابة**، أن الجارة الساكنة في الطابق الأول تدعى علية، وسمعت وأنا شاب أراجع دروسي في غرفة **السطوان** أن الجارة الجديدة الساكنة في قاع الدرب والتي تطلق من حين إلى حين صرخات حادة تزعج البنات داخل **الناموسيات** تدعى علية، وسمعت وأنا طالب أن شاعراً أمريكياً ألّف دراما في شأن فتاة تمشي فوق الرمال الذهبية

على شاطئ المحيط الهادي وتدعى علية، ثم بعد سنوات تتقدم امرأة صفراء لتقول لي: أنا علية وتفهمني أن اسمها كان منبع الأشواق الدفينة.

- 6 -

قلت لأبي لماذا سكنت علية في دربنا. قال: كان أبوها أحد الصاغة المشهورين في مكناس. ترك، لسبب ما، المدينة الإسماعيلية وطفق يتنقل من قرية إلى قرية يقول لأصحاب الجاه: «المناصب غير دايمة والأيام خاينة، خذ اللي ما يبلى ولا يفسد. أنا صنايعي ولد صنايعي، من يدي يخرج ما يحير العقول، به تقرب البعيد، به تنال المرغوب.» وصل ذات يوم إلى دار القيادة وأقنع القائد بلسانه الذلق. أنفذ له المسكن والأثاث والحرس والخدم والمعلمات وبدأ يبدع النفائس. ثم انهارت الدار وفقد القائد كل شيء. التجأ المعلم المكناسي إلى الصديقية وفتح حانوتاً ولم يلبث أن استرجع ما ضاع بل زاد على ما كان لديه من ثروة ونفوذ. فاكترى من أبناء القائد دار الصديقية وكأنه أراد أن يعينهم على معاشهم. أتذكر المعلم المكناسي قزماً ذا بشرة شفافة مشبعة بالحمرة ونظرة ثاقبة، لابساً الجلابة القصيرة السوداء والطاقية السوداء والبلغة المصبوغة بلون أدكن وأتذكر علية بنته البكر أطول وأبيض منه. أنجب بنات بعدها غادرن المدينة الواحدة بعد الأخرى إلى حيث لا أدري وبقيت علية وحدها تنزل الدرج ست مرات في الأسبوع على الساعة العاشرة

قاصدة السوق تشتري من كل نوع قدراً. وذات يوم توقفت دقات القباقب في الطابق الأول ولم نعد نسمعها تنزل الدرج ونحن نلعب في الصابة. هل ارتحل المعلم المكناسي وقرّب سكناه من حانوته خارج السور؟ نسيت علية الطابق الأول طيلة سنوات عديدة ولم أتذكرها حتى لما سمعت أستاذاً مبحوحاً يقرأ لنا شعر روبنز[7] يصف علية تمشي على الرمال الذهبية في جو دائم الصحو، عميق الصفاء، حيث النخيل وشجر الليمون، حيث المغاني الملفوفة في حدائق الزهور، حيث كل أنواع الهندسة المعمارية من القصر العربي إلى المعبد اليباني ومن المصطاف الإسباني إلى الحصن الجرماني[8]. يصف الشاعر عناد علية وكبرياءها وتطلعاتها ويتساءل: قلبها؟ ذهنها؟ سرها؟.. ظل اسم علية مدفوناً في فؤادي: نسيت مدة طويلة علية الثانية، الجارة الأخرى التي سكنت في قاع دربنا والتي كانت تصرخ ساعة الظهيرة فتقلقني وأنا أقرأ في الحجرة المظلمة المطلة على البهو. صرخت مرة فتصدّع صوتها وأزعج، من نومهن الهادئ، بنات المخادع. قفلت كتابي وقصدت المطبخ لأشرب كوب ماء فسمعت امرأة عمي تقول لزوجها:

«ها هي تعيط تاني، يا لطيف.

ـ اش باغية؟

ـ تدعيه عند القاضي لأنه هجر الفراش.

ـ والله يستحق من يخلي بنات الأشراف.

ـ هذه المرة جرت له الشعر ونتفت اللحية ونترت البلغة،

كيف الجنية. وهو مسكين يجري تحت الأقواس، حشمان. حادر عينه.

ـ خاصها ترجمان عند القاضي.

ـ بلا ترجمان، نظرتها **محاجية**»[9].

ـ 7 ـ

كنت إذا مررت في الدرب على دارٍ بابُها مفروق، وطرحة الخبز فوق العتبة، أخذتها وعيني مشدودة إلى الأرض. فلم أر قط وجه علية الساكنة في قاع الدرب، المشهورة بمهارتها في الطبخ والطرز وتفصيل الملابس. أما زوجها فكان أصفر البشرة، أمرد، مستطيل الوجه، زجاجي المقلة. كان يصلح الساعات وينفق على دارين، سطح الأولى يطل على الثانية. من يدري؟ لعل علية كانت تصرخ لأن زوجها تغيّب طويلاً وتركها وحدها بلا أنيس، لكن الجميع فهموا أنها تحتج على هجران الفراش.. «الشيطانة ما تشبع!» نسيت علية الثانية كما نسيت الأولى ولم يخطر على بالي أن تكون علاقةٌ بينهما. وأثناء المدة التي نسيت فيها علية رافقت فتاة متقاربة العينين، بين حاجبيها عرق باد يزيد من حدة نظرتها. قابلتها مراراً في مقاهٍ مختلفة، ذات الطاولات الخشبية المربعة الوسخة وذات المقاعد المدورة الصقيلة الملونة. كنت أقول لها: «اسمك خفيف، يشير إلى أي فتاة، لا إليك بالذات» فكانت تنظر إليّ بحدة والعرق بين حاجبيها ينبض ولا تجيب. لم أذكر لها اسماً يهيج الذكرى. لم أقل لها: علي،

علية، العليانة.. بعد شهور قدمت لي ابنة عمها. فطرحت عليها نفس السؤال فاعترفت أنها ذات اسمين وسألت «ما هذا الاهتمام بالأسماء؟» أحجمت عن ذكر علية وهمهمت: آمال، أملي، أميلي[10] وقصصت عليها قصة المرأة الإنجليزية النحيفة العنقاء، ذات الشعر الرماني التي سيقت إلى الزواج لأهداف خفية وكانت رقماً سرياً في رسائل تافهة تحملها البواخر عبر البوغاز إلى مكاتب تطل على نهر التيمز. ليس اللغز في اميلي الخبيثة الماكرة بل اللغز، كل اللغز، في قرينها المترهل صاحب العينين الضيقتين الغائرتين والوجنتين الناتئتين والشفتين الورديتين. هل شحت الأزهار بعطرها والعيون بمياهها؟ هل فسد طعم الحليب والعسل؟ حقاً، قد أحب النبي عليةً نحاسية اللون مكحلة الجفن[11] لكنه كان منتصراً يسانده جبريل، لا كالناصرين والمنصورين والمستنصرين الذين ادعوا أنهم خلفاؤه. كيف مصاحبة الأعداء والتقرّب إلى امرأة نحيفة عنقاء تزقزق كالطيور وتنفذ أوامر رجل طويل القامة يلبس الجاكتة والشمرير؟ إن هذا الوجه، وجه رفيق اميلي، ليستحق الفحص على مر الشهور والأعوام. كيف تنكّر صاحبه لحاضره وماضيه واستخف بارتباك أتباعه ومحبّيه وقبل كل شروط اميلي حين تظاهرت بالرضوخ لمنطق العاطفة؟ غادرت اميلي مدينة البوغاز ممتطية صهوة جواد أبيض يصحبها خمسون خادماً ويرافقها مترجم يلبس الشمرير والجزمة. صعدت ظراباً مكسوة بالدوم وقطعت أودية تملؤها الحجارة واستمعت إلى صمت الليل ثم وصلت إلى الحريم وأقامت في دار خاصة ونامت في فراش خاص بها طبقاً لشروط

شرطتها في عقد القران. عاشت بجوار رجل لا يشم أريج النسرين ولا يتذوّق الزنجبيل إلى أن مات غير مأسوف عليه. كلّت الحواس وتقلّصت اللذات فتطلع الوجل إلى محيط غريب وأحداث مفاجئة واصطادت المرأة قلباً فارغاً.

حكيت قصة اميلي لتلك الفتاة التي كانت أقرب إلى علية لأني تخوّفت من قدرتها على التلذّذ بكل خيرات الدنيا، من عينيها الفاحصتين. لو حدثتها عن علية لفهمت حالاً كيف ترتدي شالها الأصفر وتسطو على ذاكرتي وتقيدني بقيد لا ينفك إلا بإرادتها هي. فهمت تلك الحقيقة بعد أن تحررت من إغرائها وتجاوزت دائرة الخطر. فهمت تلك الحقيقة بعد أن تجولت في أقطار الدنيا وفكرت ملياً في أمري. قلت لصديق لي سقط في أشراك إحدى أخوات علية:

«إنها لا تطالبك بشيء ولا ترغمك على شيء. أليس كذلك؟ عجبت دائماً لهذا الانغماس عمداً في آلام الغير. تتفضل عليك بكل شيء، تختار لك من الفواكه أطيبها ومن اللحوم أنفعها وأنقاها ومن الأسماك أغربها وأشهاها بدون ملل ولا نفور. قد تعيش بعيداً عنها فتستجيب إليك حتى ولو كنت سجيناً في قرن الدنيا. تبادلها قبلة في ساعة مبكرة على رصيف مبلل قبل أن تجري إلى تاكسي ينقلك إلى مطار، فتحافظ هي بأمانة على طعم شفتيك. إنها حقاً عجيبة، فريدة. إنك الطير وهي الساحرة، يطير الطير ويطير حتى يظن أنه حر، ينشر جناحيه بسهولة، ولا يدري أنه مسحور وأن حريته سراب.

ـ استرجع نفسك يا أستاذ.

ـ ومع ذلك هل العطاء عطاء إذا كانت فيه لذة؟ لنفرض أنها تستخدمك لتوقد عواطفها الباردة..

ـ لا أفهم ما قصدك.

ـ أنظر إليها مع زوجها، طيّعة منقادة كأنها بلا إحساس، وأنظر إليها معك.. الصمت الطويل والكلمات الغامضة. إنها تعلم أنك ستتساءل يوماً من الأيام: كيف الإياب بعد الضياع، كيف إنقاذ الفؤاد من الأباطيل؟

ـ تقول: إن الدموع، الخصومات، التصالح، ما يملأ أيامنا ولياليناء، لا شيء؟

ـ أقول: كل شيء هو لا شيء.

ـ تقول: حياة مليئة وبعدها الفراغ؟

ـ أقول: حياة مليئة وهي فراغ.

ـ كنت أظنك أعمق فكراً.

« ـ إني متحامل حقاً وسأبقى دائماً كذلك. رغم صداقتنا، رغم حسن نيتك واندفاعك نحو الخير والجمال والفضيلة، نحو الحكمة الخالدة، أعتقد اعتقاداً راسخاً أننا نحن أبناء الصحاري لا نتطلع إلى ما هو فوق الإمكان. إن الله أراد لنا اليسر.»

ـ 8 ـ

فارقت صديقي وأنا غاضب على نفسي لأني خدشت كرامته. كلّمته وكأنني لم أتعرّض أنا لنفس الإغراء. أعدت على نفسي

مراراً هذا الحوار ومع ذلك لم أتذكر علية. وبعد ذلك بشهور جلست في مقهى القدح كئيباً متضايقاً أفكر في شيخ عجوز ـ أحد زبناء المقهى الأوفياء ـ كان يقول إنه سيشتري من المكتبة التقنية المواجهة للمقهى كتاباً يصف بدقة أشجار وطيور المغرب ليعرف رفاق حياته الطويلة. يسلّم على زملائه في الشيخوخة ويطيل الجلوس وعندما يقوم ويقصد المكتبة يجدها قد أقفلت. هكذا دواليك إلى أن مات دون أن يعرف أسماء الأشجار التي ظلّلته والطيور التي آنسته. قلت في نفسي: يأتي وقت نتوقف فيه عن اقتناء الكتب لأنه لم يعد في الإمكان تغيير أي شيء في حياتنا، ظاهراً أو باطناً. ننظر الموت ونحن أموات. الفرق بيننا وبين من سبقنا أننا نطلّق الدنيا اليوم في سن مبكر. نرتبط بالحياة متباطئين وننسلخ عنها مسرعين.

«عقلت، كنت ساكنة في دربكم.»

ـ 9 ـ

رفعت بصري فرأيت عيناً دامعة وخداً متغضناً وشعراً مصبوغاً. وأدركت حقيقة كنت أعلمها منذ البداية وأنسانيها التجوال: علية التي سكنت في قاع الدرب هي بنت المعلم المكناسي.

«سكنت مرتين في الدرب..

ثم حكت لي قصتها وهي واقفة، قصة حياة كلها بكاء وندم، أشغال منزلية وانتظار.

«تعرف الناس، ألسنتهم مطلوقة. قالوا إني سحرت له وفرَّقته عن أولاده. هو اللي كلّمني وعرض عليّ. كل صباح كان يوقفني على باب السوق ويقول لي كلمة. شفت حياتي كلها بين المواعين، طباخة، وسمعت لكلامه. كنت عارفة حياتي ماشية تبقى هي هي، وحتى الخرجة للسوق ماشية تقطع. بغيت هذا ورضيت به. هو اللي ما رضي بي ولا بغاني، علاش ابتسم لي في الأول؟ كان صنائعي بين الصنائعية، مبسوم وقلبه هشيش. من الأول خاف مني، عمره ما تفتّح، دائماً مزموم. عمره ما أنسى رأسه حتى في النوم. قبل ما ولدت كان يقول لي إنت ما ثايقة ولما ولدت كان يشوف أولاده في المراح ويغمض عينه ويغيب عن الدنيا. الى جاء الماكول حار يغضب ويقول: عمر الطبيعة ما تتغير، والى جاء باسل يرميه ويقول: هذا ماكول السوق. عايلتي هجرت المدينة وبقيت وحدانية. الأيام. . الأيام ولا واحد يطرق علي الباب. ما عندي غيره ولما يجيء في الليل ويلقاني فايقة بالعشاء يصيح: مستنية سيدنا قدر؟

ـ والصياح اللي كان يفيّق بنات الدرب؟

ـ على القطط والطيور.

ـ واللحية؟

ـ حلقها قبل ما نتعارف.

ـ وعلاش بقيتِ؟

ـ أنا كنت راضية، هو اللي ما ارضى بي، كان يخاف مني. لما مرض مرضه الأخير وثقل عليه لسانه تجرجر من الفراش إلى

حائط الدار الأخرى ودق حتى جاووا واخدوه. مات في الدار الأخرى مع الأولاد وبقيت أنا وحدي.»

أطرقت المرأة الملتفعة في معطفها المدادي وحدقت في يديها النحيلتين المعروقتين الشفافتين.

«واليوم أنا عايشة وحدي.. حتى الأولاد أخدوهم مني.. عايشة في حانوت في باب مراكش أبيع العقد والصدف.. حتى يحن ربي. هذا هو الهنا.. وأنتم كيف حالكم؟ اش أخبار سيدي الكبير؟

- رحمة الله عليه.

- رجل كلمة، لا بد الله يرحمه. وأختك الكبيرة؟ تونست معها. علمتها الطرز والخياطة. كانت بحالي، خايفة تموت بلا أولاد وتبقى طول أيامها خدامة. واش تزوجت؟

- نعم.. تزوجت.. وهي ساكنة في الحومة.

- ولدت؟

- لا. ما رزقها الله أولاد.

- مسكينة!»

- 10 -

مسكينة علية. إني أعلم لماذا عرفتِني بسهولة بعد الفراق الطويل ولماذا توقفتِ أمام مقهى لتكلّميني عن حياتك. وحيدة في مدينة غريبة ككل المدن. الحل الوحيد أن تختمي حياتك حيث بدأتها، صنائعية كأبيك في حانوت خارج السور. أراكِ من جديد

في هذا اليوم المظلم عائدةً بخطى وئيدة إلى باب مراكش، ضحية وفاء مثنى[12]. أراك من جديد تبتعدين مارة أمام الصيدلية محاذية طريق السور وأعطف عليك أكثر مما أعطف على اميلي مع أني أعلم أن إغراءك أفتك من إغراء المرأة العنقاء. علية، يا علية، ما عدلت في حقك وما كان لي أن أعدل. الجو كئيب، المدينة كئيبة وأنا أيضاً كئيب. قد حان وقت الغداء، لنذهب إلى مطعم **بريطانيا** نسمع ما يقوله أصحاب الأعمال والأخبار. أجوب شوارع **تريستا** (لم أذهب قط إليها). **تريستا** مدينة وأكثر من مدينة، إنها نهاية الدنيا. البيضاء مدينة بلا قلب لأن قلوب سكانها تتعلق بميادين غير موجودة فيها. يقيم المرء في البيضاء، فيها يعمل ومنها يثرى ولا يقول: أنا بيضاوي. فتبكي البيضاء حظها التعيس. واليوم أنا أيضاً تنكرت للمدينة التي تأويني وتطعمني وتسقيني. إذا جاء الزلزال حق العذاب على قوم لا يؤمنون.

- 11 -

«تخبر الشركة العالمية للطيران السادة المسافرين القاصدين **فريطاون وأكرا** أن موعد سفرهم قد تأجّل وذلك بسبب تأخير وصول الطائرة من **لشبونة**.» أعادت المذيعة الإعلان ثلاث مرات بفرنسية أنيقة وعربية عتيقة وإنجليزية متعثرة. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً والمطار يكاد يكون فارغاً باستثناء خمسة أشخاص يصعب التكهن من أي بلد هم: أمريكا؟ إنجلترا؟ جنوب إفريقيا؟ هل أرجع للمدينة وأتعشى؟ لكن المذيعة لم

تحدد ساعة الوصول. الأحسن أن أبقى في المطار. ليس معي كتاب ولا صحيفة وليست لي رغبة في محاورة المسافرين أو الشرطي الوحيد المكلف بحراسة المطار في هذه الساعة المتقدمة من الليل. وشكل المسافرة المنتظرة؟ هل حافظت على محياها كما عرفته قبل خمس عشرة سنة أم أبدلته بوجه مستعار؟ كانت وهي شابة نحيفة صفراء، من النوع الذي لا تؤثر فيه السنون رغم انسيابها. لكن تغير الطقس والتغذية والإكثار من مواد التزيين، ألم يؤثر كل هذا حتى في أمثالها؟ وأنا؟ كيف تتخيلني الآن وهي في الطائرة تقترب من شواطئ المغرب؟ إذا كانت تفكر بي، هل تتصورني كما كنت فعلاً أم كما تتخيلني في إطار الموضة الجديدة؟ لو عرفتني معمماً مجلبباً، هل كانت تحتفظ في ذهنها بتلك الصورة، أم كانت تضع تلقائياً الجاكتة موضع الجلباب؟ . . لماذا أخاف من المفاجآت؟ لماذا أريد دائماً أن أستقبل الحادث قبل أن يحدث؟ المطارات وسط الليل، فارغة، صامتة، مقلقة. كنت فيما مضى أرى المطار صورة مصغرة للعالم. إبتعد بضعة أميال من مسكنك يتقدم إليك العالم بمختلف لغاته وأزيائه وألوانه وعاداته. أحببت المطارات كثيراً عندما كنت أسافر كثيراً. وبعد أن قررت ملازمة بلدي تطوعت، كلما سنحت الفرصة، لاستقبال ضيف أو توديع زائر. ها أنذا لا أبرح المغرب منذ عشر سنين اختياراً لا اضطراراً. رأيت من حولي أصدقائي ومعارفي يجرون للحصول على جواز. إذا سحب منهم كانوا مثل طيور قصت أجنحتها. لو وقع لي هذا قبل عشر سنوات لشعرت بنفس الشعور. الآن لا أرغب في حمل أي ورقة تعريف. الحرية

عندي ألا يسجل اسمي في أي دفتر من دفاتر الإدارة. نعم، كل شيء عندي مستعار. أسكن شقة باسم امرأة قاسمتني حياتي ثم غادرتني بدون إنذار. أؤدي الكراء، وواجب الماء والكهرباء باسمها. أما شغلي فيجهله معظم الناس. أصحح أخطاء من لا يحسن لغة أجنبية. حصيلة صدفة كالحياة كلها. من يقول إنه يخطط لحياته كذاب يستحق أن يصلب. قد يكون لحياتنا منطق لكننا نجهله.. نكرة مثل الآلاف غير المؤلفة الذين لا يعرفون بالاسم والسكنى والمهنة.. رقم بين الأرقام..

- 12 -

سطح المطار.. أضواء برج المراقبة ومصابيح المدرج تمنع المشاهد من اكتشاف ما حول المطار والتلذذ بصمت الليل. السماء ملبدة بالغيوم.. حتى لو اقتربت الطائرة لما أبصرتها من هنا. ريح الغربي راقدة، الرطوبة متجمعة في الهواء تبلل الشعر والثياب، تغشي زجاج النظارات قبل أن تسري في العروق. سأتروح لو أطلت الوقوف هنا.

«تخبر الشركة العالمية للطيران بوصول الطائرة القادمة من لشبونة.»

- 13 -

«غداً، غداً نلتقي..»[13] كان هذا وعد مارية لما غادرت المغرب منذ خمسة عشر عاماً. وكان وعدها مثل وعد التجار

الذين يكتبون على دكاكينهم: ادفعوا اليوم وغداً خذوا بلا شيء. يصدقون دائماً ودائماً يكذبون. بهتت قصة مارية وحثل اسمها في مؤخرة ذاكرتي كأسماء الحيوانات والنباتات التي تعلمتها في قسم الباكالوريا.. وبعد خمسة عشر عاماً تصلني رسالة من أطراف الدنيا تحمل طوابع متعددة، غير مضمونة، أرسلت مع اللقلاق وأعطانيها نادل في مقهى الفوكس. أنتظر في هذا المطار، مشتّت الفؤاد، بلا أمل. ماذا تريد مني مارية؟ أي شيء حدث حتى تعود وتقرر الاتصال بي أول ما تطأ الأرض التي هاجرتها غاضبة يائسة؟ إن العواطف تذبل وتسقط كأوراق الخريف، وتتبعها الآمال بعد الثلاثين. هذه امرأة اسمها مارية تأتي إلى المغرب لأول مرة، تجد في مفكرتها اسمي فتكتب إليّ لأسهل عليها الإجراءات الإدارية، لأحجز لها شقة ولأوصلها إلى قلب المدينة. هذه هي الحقيقة وتباً لكل العواطف الرخيصة!

ـ 14 ـ

على الساعة الحاية عشرة لفظت البوابة رقم 1 مضيفة متبوعة بزوجين مسنين وامرأة متوسطة السن تلبس معطفاً صوفياً أحمر وقبعة ملائمة للمعطف. رفعت يدي أرحب بالمرأة فعرفتني وابتسمت ابتسامة عريضة مشرقة. ليلى! هندام غربي وبشرة شرقية، سلوك أمريكي وحس عربي. الشعر سلس فاحم مسرح تسريحة ذات دروج كمعبد بعلبك، العيون جاحظة شيئاً ما والمقلة كمونية، القامة قصيرة والصدر خصب. تتكلم ليلى

بهدوء ورصانة ضابطة حركات جسمها ورمشات جفنيها. تتحمل العمل الشاق المتواصل ثم تقعد على **الصفّة** لتستمع إلى ألحان فيروز. شغلها بيع دمى في حانوت **اكسسوار** وسط شارع **هوليود**. **«روتس، روتس»** كل من حولها يهتم بالأصل والجذور، الأرميني، الإيطالي، اليهودي. يسألونها وهي شابة: «وأنت من أين أجدادك؟» فتسأل بدورها عمتها التي ترد: «نحن من زحلة، نسمي أنفسنا سوريين، لكن زحلة تقع اليوم في حدود لبنان». وتعلّق ليلى: «إذاً نحن من لبنان» فتقول العمة: «نعم نحن من لبنان» لكن عندما تقول لليهودي أو اليوناني: «نحن من لبنان» يستنتج: «إذاً أنت عربية» فتستغرب. تذهب كل يوم أحد للكنيسة اليونانية وتتلقى دروساً دينية. يقال لها إن العرب فرقة غاوية أنكرت ألوهية السيد المسيح جهلاً منهم وتكبراً وأنهم تغلبوا بقوة السيف على المسيحيين فاستغلوهم واستعبدوهم حتى جاء إخوانهم في الدين فحرروهم. فتسأل عمتها: «هل نحن عرب؟» ـ «كنا في زحلة نسمي العرب سكان البادية ورعاة الجمال ونعتبر أنفسنا مستعربين لأننا نتكلم العربية» ـ «لكننا نتكلم الآن الإنجليزية!» ـ «اليوم الجميع يتكلم الإنجليزية» كبرت ليلى والتحقت بالجامعة. كثيراً ما كان الأساتذة يظنون أنها تقرأ العربية وكثيراً ما كان يستدعيها زملاؤها إلى حفلات تستمع فيها لألحان فيروز وتأكل الطحينة وتشرب العرق. كانت تقابل شباناً تختلف سحناتهم وأشكالهم يتخاطبون جميعاً بالإنجليزية ويقولون جميعاً إنهم حماة فلسطين. اليوم تطير ليلى قاصدة بيروت وزحلة لتتعرف على ابن عمها الذي طلب تأشيرة دخول إلى أمريكا للعام

المقبل. رفضت أن تمر عن طريق باريس وروما وأثينا وفضلت أن تتوقف على عتبة أرض العروبة. تود ليلى أن ترى أرضاً تريد أن تنتمي إليها لأن جيرانها ينتمون كلهم إلى أرض بعيدة عن مستقرهم. وأنا أراني أبحث منذ سنوات عن شيء غامض أشعر أنه سر من أسراري. لا أدركه ولا أقدر حتى على تسميته لكنني آمل أن أراه قريباً معزولاً مفروزاً، تبراً بين الحصى، في فؤاد المهاجرة التي رغم أنها قطعت كل رباط مع أرض الأجداد ما زالت تستلذ الطحينة وتطرب لأنغام فيروز.

ـ 15 ـ

وأخيراً خرج المسافرون القادمون من لشبونة تتقدمهم مضيفة من البوابة رقم 3، بينهم امرأة متوسطة السن ترفع يدها في شيء من التردد. رفعت يدي فانفتر وجهها عن ابتسامة وضاءة. أرى امرأة أظن أنها مارية، لكن لا علاقة بينها والفتاة التي عرفتها وناقشتها وأحببتها. أرى امرأة تلبس معطفاً صوفياً أحمر وقبعة حمراء، بشرتها ناصعة، وجهها مكتنز كوجوه المترفين، براقة كأنها خرجت من الحمام أو فارقت صالون التزيين. أشحت عنها لكي لا أتفرس وجهها بإلحاح. ثم عدت لألقي عليها نظرات خاطفة. تنحى جميع المسافرين جانباً وبقيت وحدها أمام الشباك. تصفح الشرطي أوراق الجواز وأعاد ثم قام وولج مكتباً وراءه. وبعد ثوان خرج من المكتب ضابط شاب. خاطبته المرأة ذات المعطف الأحمر والابتسامة المشرقة لا تبرح شفتيها. أين

ماریة المتزمتة الكالحة؟ دخل الاثنان إلى المكتب وطال الانتظار. إذا ظننت أني سأسهل عليها إجراءات الدخول... ! تساؤل عابث. منذ أن بدأت تحاور الشرطي لم تلتفت إليّ ولو مرة واحدة. لم تنتظر مني أي عون. هذا سلوك يذكرني بمارية الأيام السوالف. خرجت المرأة ذات المعطف الأحمر من مكتب الشرطة والساعة قد جاوزت الثانية عشرة. تقدمت إليّ مبتسمة. «معذرة.. لقد طال الانتظار.» - «لا بأس.. إني معتاد على الانتظار.» - «أنا مرتاحة لرؤيتك يا ادريس.» - «وأنا كذلك، يا مارية.» - «هل عرفتني من أول نظرة؟ أنا عرفتك رغم لحيتك وشعرك الطويل.» - «وأنا عرفتك أيضاً في الحين، لم تتغيري كثيراً» توجهنا إلى قاعدة الجمارك والحارس ينظر إلينا ولا يرانا، واقفاً كالممسوخ. وجدنا الحقيبة جنب البساط المتحرك. حملتها ووضعتها قدام المفتش الذي ألقى نظرة عابرة على الجواز الأجنبي وأشار برأسه أن اذهبا إلى حال سبيلكما. أخذت الحقيبة، لونها لون المعطف والقبعة وقصدت الباب بخطى سريعة؛ ومارية من ورائي تحمل **شكارة** وآلة تصوير كبيرة كما يفعل السواح في كل بقاع الدنيا.

- 16 -

طالما وددت لو أرى البندقية في الشتاء أو في الخريف، تحت المطر والرياح العاصفة. لكني لم أرها قط في أي فصل من الفصول. بعد كل ما كتب حول المدينة الكئيبة ماذا بقي لنا نحن

المتأخرين أن نشاهد؟ هل يمكن أن نجد فيها غير ما وصفه شعراء الحزن والانحطاط؟[14] لم أذهب قط إلى البندقية وأعرف بالضبط موقع الهاريس بار وجسر الأكاديمية ورأس الديوانة. أعرف الطرق والأزقة والميادين التي يقطعها المتوجه من الفناء الكبير إلى سوق الأسماك والحدائق العمومية. أعرف أوقات الجواز من سان ماركو إلى شاطئ الليدو، وأميز بين الجندل وزورق البنزين والوابور. حتى لهجة السكان أعرف أنها تختلف عن سائر لهجات إيطاليا. يقول عشاق البندقية: إذهب إلى تريستا ومنها إركب باخرة، سترى كنائس المدينة تتمايز في ضباب الصباح كما كان يراها بحارة القديس مرقص وهم عائدون من الإسكندرية أو من يافا حاملين أثواب الصين وتوابل الهند. رغم النصيحة ستصل إلى البندقية عن طريق البر بعد أن تسافر في القطار اثنتي عشرة ساعة رفقة عمال مهاجرين راجعين إلى الوطن لأداء واجب وطني أو عائلي. المحطة فارغة على الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، الشبابيك كلها مقفلة. تخرج من باب المحطة الفخم وتلمح في نور خافت بناية خشبية كالتي يقف أمامها الترام في العواصم الكبرى. يهب نسيم كثيف يذكرك بسماكة الديباج. تمعن النظر، تتعود على الظلمة فتدرك أن البناية شباك وراءه قاعة تقع مباشرة على ضفة القناة. تتقدم إلى الشباك وتسأل المكلف فلا يجيب. تلتفت يميناً وشمالاً وتتساءل أين ذهب باقي المسافرين؟ هل نزلوا في محطات سابقة؟ هل تفرقوا في الأزقة المجاورة؟ هل ابتلعتهم الأرض؟ المخرج الوحيد أن تنطق بالكلمة السحرية التي تفتح كل أبواب البندقية. اسم

القديس مرقص. فيستيقظ النعسان وراء الشباك ويأخذ منك ورقة مائة ليرة ويرد عليك صرفاً لا فائدة في عده ويناولك تذكرة. تقدم حينذاك نحو المعبرة الراسية وانتظر الوابور رقم 2 الذي يربط المحطة بساحة سان ماركو مروراً بالقناة الكبيرة. سترى الساحة تماماً كما رأيتها مراراً على الشاشة وفي الكتب المصورة، لكن مظلمة، فارغة، مهجورة من الرجال والحمام. المتاجر والمقاهي مقفلة والمقاعد مكدسة تحت الأبهاء. إذا مررت صدفة إزاء المئذنة ستسمع جماعة من الطلبة الأمريكان يهمهمون وينقطون على قيثارة فلا تسأل أياً منهم عن أي زقاق أو ميدان أو فندق. لن تجد في البندقية من يعرف أسماء الأزقة. تحاول الخروج من الساحة فترجع على أعقابك مرات حتى يكاد صبرك أن ينفد. فلا تيأس ولا تتضايق، إن هذا من إغراء المدينة: أرقام الدور غير متتابعة والزقاق الواحد يحمل أسماء مختلفة. هم على وجهك واستسلم للقدر. ستعثر بعد تيه يطول أو يقصر على الفندق الذي تبحث عنه إذا ساعدك الحظ، وإذا كنت سيء الحظ.. فالأفضل لك أن لا تأتي إلى البندقية. باب الفندق مقفل، عليك أن تضغط على الزر مراراً وتنتظر طويلاً وأخيراً سيظهر حارس الليل ويستقبلك كأنك ارتكبت خطأً لا يغتفر إذ جئت في وسط الليل. يكلمك بأي لغة اخترت ويسألك عن أحوال بلدك، مهما كان، كأنه غادره البارحة ثم يعطيك الإرشادات اللازمة: كيف تفتح الباب، تقفل النافذة، تستعمل آلة التكييف، تسد البزبوز[15]. يقوم كل مرة بالتجربة أمامك ويتأكد: هل فهمت؟ وكأنه ينبّهك: إياك أن توقظني بعد أن أنام. وأنت

تسمع وتجيب في حالة غيبوبة من التعب. قم باكراً ولا تفطر في الفندق إذا لم تكن غرفتك تطل على القناة. اتجه نحو الحدائق واجلس رغم البرد القارص خارج المقهى لأن الصباح الباكر هو الوقت الوحيد الذي يمكنك أن تستنشق فيه نسيماً يذكرك بنعومة الحرير. أطل الجلوس قبالة كنيسة السيدة مريم الكبرى ولا تنزعج. ليكن يوم وصولك إلى البندقية ما يكون ستجد أن اليوم التالي يوم عطلة. المصارف والمتاجر وأغلب المتاحف موصدة لسبب غير واضح حتى لسكان المدينة. إئت للبندقية لتراها فقط، لتجعل منها محيطاً لأقوالك وأفعالك. إئت إليها وأنت على موعد مع الفتاة التي هويتها، مع الحياة التي تطلعت إليها، مع الأمل الذي جريت وراءه، مع الفكرة التي آمنت بها. لا تأتِ وحيداً، البندقية لا تحتمل الوحدة ولا تشفي من الوحدة. إنها تزيد من كآبة الكئيب وشؤم المشؤوم. إنتظر أن تدق الساعة الحادية عشرة واقصد مقهى **فلوريان**. ستجدها قد سبقتك إلى الموعد. ستراها من خلف الزجاج وقد خلعت معطفها الأحمر ونشرت أمامها خريطة مفصلة تزوّدك بكل المعلومات عن المعالم التاريخية وأرقام خطوط الزوارق والوابورات. ستفهم أن البندقية تقع على شاطئ بحيرة تحمل اسم همنغواي.

ـ 17 ـ

«لقد مشيت ومشيت حتى انتفخت رجلاي وتقوّس ظهري.

ـ وماذا رأيت؟

ـ كل ما يلزم: الملاّحة وهم يستخرجون لؤلؤة القديس مرقص، القديس أغسطين، نوح وهو يطير متبوعاً بمخلوقات عجيبة[16].

ـ وماذا تركت لتشاهديه معي؟

ـ بجانبك أشاهد كل شيء من جديد.

ـ انتظرت هذه الدقيقة منذ خمس عشرة سنة.

ـ نعم، طالما تمنيت أن ترى البندقية في الشتاء. ها فصل الشتاء وها أنت في البندقية!

ـ ماذا فعلت في (الغربة) طوال هذه السنين؟

ـ حسبت الأيام ثم تخيلتك.

ـ وعشت مع غيري!

ـ لقد أعانوني على الحياة. نسيتك فتذكرتك ثم نسيتك فتذكرتك.

ـ هذه دقائق مفصولة عن الماضي وعن المستقبل وهذه مدينة مقطوعة عن الغرب والشرق، كنائسها كالمساجد، لنبتعد برهة عما قد وقع وعما قد يقع.

ـ إننا هنا بسبب أشياء وقعت منذ أزمان متقادمة.

ـ لنفرض أنها حدثت البارحة.

ـ لنفرض. . ولنذهب إلى حيث يجتمع الشباب.

ـ أفضل أن أرى امرأة مسنة، شعرها أبيض تشدّه سفيفة زرقاء، ينظر إليها زوجها، قميصه من الصوف الملون، وكأن لم

يمر على زواجهما إلا يوم.

ـ سنبحث اليوم أو غداً عن السقاية المشؤومة، سقاية الموت في البندقية[17].

ـ سنذهب إلى الأكاديمية لنرى العاصفة وانفجار الساعة[18].

ـ وفي متحف كوكنهايم[19] لوحة ماكريت[20]. زرقة ماكريت، والقبر الصغير المكتوب على رخامه: إلى أولادي الأعزاء. ومن هم هؤلاء، أصحاب الأسماء اليونانية؟

ـ أولاد يتامى.

ـ لا، بل كلاب.

ـ العطف على الحيوان سخط على الإنسان.

ـ والعطف على الإنسان سخط على القدر. (وتعلو وجه مارية موجة من اليأس).

ـ أستنشق رائحة الماضي، أستلذ طعم الماضي بعد خمس عشرة سنة. لنترك المتاحف وماكريت. لنطوِ ما قرأنا في دليل السواح. إننا في البندقية بعد خمسة عشر عاماً من التنقيب عن حقوقنا الضائعة، لنلجأ إلى غرفة الفندق، نوصد النوافذ ونفرغ ما في قلبينا وعقلينا من حزن وشجى، من مرارة وندم على ما وقع وما لم يقع ونكتب كلمة النهاية في صفحة بيضاء نجعلها هي الأخيرة رغماً عن القدر الجائر. غداً يذهب كل منا إلى حال سبيله متحرراً من أغلال الذكرى، متصالحاً مع نفسه ومع الزمن.»

ـ 18 ـ

«السيارة بعيدة، انتظريني هنا بالحقيبة، لن أتغيب طويلاً.»

ماذا أفعل الآن؟ أقصد الفندق مباشرة وأودعها هناك؟ لو فعلت هذا لما سخطت، حسب سلوكها في المطار. الأفضل أن أتخلص منها في الحال. وهل أتخلص منها إن أنا ودعتها في بهو فندق؟ سأبحث عنها في اليوم التالي، سأفكر ساعات وساعات لماذا رجعت إلى المغرب وماذا تريد، سيتعلق بها ذهني لأيام لا تحصى. أحسن لي أن أفكر في موضوع آخر.. هذه أول فرصة مواتية لأذهب إلى **الواحات** بعد العاشرة ليلاً..

«إلى أين؟»

خيّل إليّ أن السؤال فاجأ مارية. إلتفتت إليّ وحدقت في وجهي وهي تبتسم. كانت على وجهها علامات الرضى والاطمئنان والثقة في النفس. دون أن تجيب نزعت القبعة فانسدل شعرها خصلات حريرية. هذه امرأة عثرت صدفة على اسمي وكتبت إليّ مستعيرة اسم مارية. كانت مارية التي عرفتها تذكرني دائماً بشجرة الزيتون، بل كانت في ذهني شجرة زيتون وهذه المرأة الجالسة بجانبي بعيدة كل البعد عن الشجر، زيتون أو غير زيتون.

«لم تطلبي مني شيئاً محدداً والساعة الآن بعد الواحدة صباحاً والحياة الليلية في البيضاء محدودة. ماذا أقترح عليك؟

ـ عشت أعواماً في ضواحي مدينة كبيرة تخلو شوارعها من

المارة ابتداءً من السابعة. إذا رأى البوليس راجلاً أو سيارة تتحرك ببطء اعتبروا ذلك خرقاً للعوائد وقبضوا على المتهمين ليحققوا في هويتهم.

ـ لنذهب أولاً إلى **الواحات** ثم نفكر فيما بعد.

ـ هذه بداية مشجعة. ما هي **الواحات**؟

ـ إذا كنت قد نسيت، أذكرك أننا لا نعيش هنا بالليل مثل سكان القاهرة وبغداد. **الواحات** مطعم، المطعم الوحيد الذي يقبل الزبناء بعد العاشرة. مطعم صغير، هذه هي ميزته الوحيدة. لطالما وددت أن أرافق أصدقائي، ممن يعتبرون أنفسهم كتاباً ونقاداً وممثلين ويريدون أن يعطوا للمدينة حياة ليلية. لكن كلما عدت من عملي إلى البيت غلبني النوم وكلما سهرت في سينما أو مسرح تعبت وعدت مباشرة إلى البيت. أشكرك لأنك أعطيتني فرصة الذهاب إلى **الواحات** في منتصف الليل؟»

اشتعل المحرك بعد محاولتين ودرجت السيارة نحو المخرج المحفوف من كل جانب بستارين من الحور. بعد أمتار غادرنا ضوء المطار فغلفتنا عتمة ليل الخريف. تعجبت مارية:

«أين أنوار المدينة؟

ـ هذا مطار جديد يبعد عن البيضاء عشرين ميلاً تقريباً. . لماذا تأخرت في غرفة الضابط؟

ـ بسبب الجواز: المعلومات التي يحتوي عليها تبدو متضاربة، محل الولادة لا يوافق الاسم العائلي[21]. سألني الضابط عن كل شيء: أين ولدت؟ أين عشت؟ لماذا أحمل هذا

الجواز؟ لماذا عدت إلى المغرب؟ محل إقامتي؟ موعد مغادرتي البلاد؟ كنت أجيب بتفصيل وهو يسجل. كان مؤدباً جداً.»

صوتها هادئ، متزن، مخدر كأصوات المضيفات في المطارات العالمية. الابتسامة لا تفارق شفتيها وكل قسمات وجهها هادئة. هل كان صوت مارية هادئاً أيضاً؟ لماذا استدعيتها إلى المطعم؟ ندم عابث.

«لماذا كتبت إليّ؟

ـ أنت الشخص الوحيد الذي أعرفه في المغرب؟

ـ ولماذا عدت إلى المغرب؟

ـ لسبب مهني. أتريد أن أفصل كل شيء من الآن؟»

كم أنا خشن! ما هذا التصرف الخشن؟

«معذرة. لا داعي إلى ذلك.»

غادرنا حدود القاعدة الجوية وتوغلنا في ظلام دامس. مصابيح السيارة الأمامية ضعيفة لا تضيء إلا متراً أو بعض متر. عليّ أن أسير ببطء وأن أنتبه وأن أشد على المقود بكلتا يدي. زادت الظلمة عندما اقتربنا من غابة بوسكورة. كيف أحاورها؟ لست حراً إزاءها، إن كلّمتها عن الماضي قد تنزعج وإن أمسكت، ماذا يربطني بها؟ امرأة أجنبية! وفجأة سطعت المدينة: علبة منيرة مستطيلة قذفها البحر على الشاطئ، يخت يستضيف حفلة راقصة بعد أن رسا في مرفأ مظلم.

«منظر جميل!

ـ نعم منظر جميل. لم نر المدينة قط من هذا المرتفع ونحن شبان.»

في هذه النقطة بالذات انتصب فرسان مديونة في بداية القرن يراقبون ما يجري داخل السور[22]. لنتصور رئيس البارجة وقائد الجند ينظران عبر المنظار المكبر إلى الفرسان المتصافين على الكدية في الضباب. صورة مؤثرة لم تسجل بعد.

«عشت في مدينة تشبه البيضاء من حيث الموقع وإن كانت أضخم منها بكثير. قابعة بين البحر الهادئ والتلال الآهلة. إذا تسلقت الطرق الملتوية التي تحوم فوق المدينة رأيت الأضواء متباعدة جداً، ملفوفة في ضباب متموج كالسحب المتلبدة التي تنزلق عليها الطائرة في فصل الشتاء. إذا نظرت إلى المدينة من أحد المطاعم الموجودة في رؤوس الناطحات رأيت أشكالاً هندسية، أضلاعاً متساوية، خطوطاً متوازية وأخرى متقاطعة، زوايا مستقيمة، ميادين مربعة، تعلم أنها شوارع ومحاج وساحات ولا تستطيع أن تطأها بقدميك لأن الخطر قابع في كل حصية من ملايين الحصى التي تتكوّن منها الأرصفة. تراها من علٍ وتقول: هذه هندسة وهندسة فقط.

ـ الخطر موجود في كل أنحاء الدنيا.»

تباً للأدب واللياقة! لماذا تتكلم مثل المضيفات، بجانب شدقيها، القول مفصول عن النطق. على أي حال، لو التفت الآن لوجدتها تبتسم ابتسامة عريضة!

ـ 19 ـ

«رغم ما قلت، لا تخافي على حقيبتك. المطعم بجوار بنك محروس ويمكنك، زيادة، أن تراقبي السيارة من داخل الصالة.»

مرت دقائق بلا حركة.

«كيف أفتح الباب؟

ـ ادفعيه بقوة.»

نفّذت مارية الأمر. غادرت السيارة وتقدّمت نحو المطعم. شبح امرأة راضية، مطمئنة، عارفة ما لها وما عليها. لم أتعرّف قط على امرأة مثلها. أهكذا أصبحت مارية؟ هل يمكن هذا التحول؟ هذا المسخ؟ أتمنى أن أكون في مستوى نضجها.

كان حول البار أربعة زبناء. أمامهم أطباق مشهيات وزجاجات سان ميڤال. في الصالة المفصولة عن البار بدربوز رجلان متقابلان على طاولة، وبالقرب منهما شاب ذو لحية كثة وشعر طويل فاحم تحيط به ثلاث بنات صبغن أوجههن أكثر من اللازم. نزعت مارية معطفها وجلست تلقائياً في المقعد المقابل للبار المطلّ على الشارع حيث كانت السيارة.

«على هذا المطعم طلاء إسباني.

ـ كان صاحبه إسبانياً وما زال يختص في الطهي الإيبري، السمك والأرز.

ـ السمك يوافقني جداً، خاصة في وجبة العشاء.»

جاء النادل وكتب بسرعة فائقة الأوامر بدون تعليق ثم خيّم الصمت.

من رآنا يحتار في أمرنا. هندام مارية، سكوتها، أناقتها، كل شيء فيها ينبئ بأنها ليست خليلتي.. والاحتمالات الأخرى؟. على الله!

«فيمَ تفكر؟»

رفعت بصري فرأيتها تبتسم وتنظر إليّ نظرة بريئة غير ملحة كنظرة الممرضات. فأجبت: «في سر لا يذاع.»

ثم تابعت:

«كنت أتساءل كيف أحدثك. شعرت منذ أن طلعت عليّ في المطار أن ما حدث بيننا ذاب في بحر النسيان. الكلام عن الماضي إذن ممتنع. يبقى الحاضر.. لكني أراك تنظرين إلى المدينة كأنك لم تغيبي عنها قط.. فيمَ أكلمك إذن؟»

أجابت على الفور وبدون تردد: «جئت هنا لسبب مهني، اشتغلت عشرة أعوام في مكتبة، حارسة ثم بائعة ثم مساعدة للزبناء، ثم مكلفة باستيراد المؤلفات المدرسية ثم مديرة المبيعات. بعد أن تعلمت أركان المهنة، أصبح من اللازم أن أغيّر وجهتي. ففكرت في التدريس ولكي ألتحق بسلك المدرسين لا بد من إنجاز بحث.

ـ أوَ جئت إلى هنا لإنجاز بحث؟

ـ نعم.

ـ غريب.. شيء غريب.. لكن لماذا هنا؟

ـ هذا سؤال عويص. لن تصدقني.. لم أختر أن آتي إلى المغرب. تكلمت مع أحد الأساتذة فقال: لماذا لا تذهبي إلى

بلدك؟ لم ينجز فيه بحث دقيق. هل كان لي أن أرفض الاقتراح؟

ـ ما هو هذا البحث الدقيق؟

ـ وصف الخلايا الأولية، في نطاق محدود، كما تظهر، بلا زيادة.

ـ تصوير الحياة العادية في إطار العائلة والحومة.

ـ بالضبط. يجب اختيار مجموعة غير منزوية تمام الإنزواء عن العالم الخارجي وغير منقطعة تمام الانقطاع عن الماضي.

ـ مدينة عتيقة في جوار مدينة عصرية. اخترت أنت إذن الصديقية.

ـ لا، الأستاذ. تقدم نحو الخريطة، وضع مركز الفرجار على عاصمة البلد. رسم دائرة ثم قرأ. هكذا يفعلون بالنسبة للبلاد النائية. لم يسألني رأيي، المفروض أن أجرب، إذا اتضح أن البحث متعذر في المكان المقترح لسبب قاهر، حينئذ يغير موضوع البحث.»

كان النادل قد وضع على الخوان منذ زمن زجاجتي سان ميڤال. بعد برهة عاد بأطباق المشهيات: بطاطيس بالزيت، جزر مخلل، أسماك مقلية منوعة، سردين، مرنة، قمرون. انتدبت مارية للسقي. شربت من كأسها ببطء واستلذاذ ثم بدأت تنقي القمرون. تقضم نصف كل واحدة، تتذوقها ثم تغمس الباقي في صلصلة بيضاء.

«جئت هنا لغرض معين. لم أطلب أن آتي إلى المغرب، الظروف هي التي ساقتني، لكني لم أمانع وما كان لي أن أمانع.

ـ ولماذا كتبت إليّ؟

ـ ولماذا لا أكتب إليك؟»

أجابت على الفور وبقوة. نظرت إليها، إلى ابتسامتها العريضة، إلى أسنانها الناصعة، إلى لثتها الشاحبة التي تنم عن تغذية متكاملة وحياة منتظمة، وفهمت أن سؤالي كان في غير محله. الواجب أن أحاورها كما لو لم أرافقها أبداً قبل اليوم. إنها لم تنس الماضي، النسيان يحتفظ بجرثوم الذكرى. إنها تحوّلت إلى امرأة غير المرأة التي عرفتها. لا بد أن أعتذر إليها:

«قصدي، هل يمكن أن أعينك في شيء؟

ـ لا أدري بعد. هيأت برنامجاً للعمل، أتمنى أن أنجزه في مدة شهر.

ـ مدة شهر واحد. هذا كل ما تستحق المدينة العتيقة!

ـ ليس هدفي فهم المدينة. هدفي وصف الحياة التي يحياها بعض سكانها.

ـ ألا تخافين أن يكون الوصف سطحياً؟

ـ هذه نقطة لا تهمني أنا. أحمل معي أسئلة فرزتْها، دققتها، قولبتها آلات إلكترونية. مهمتي أن أقابل كل سؤال بجواب مقتضب. هناك من يقوم بالترجمة والتحليل والتركيب والتأويل»[23].

تنطق مارية ببطء، بنبرة رتيبة. تخطئ أحياناً، تتعثر، تبحث عن العبارة الملائمة، لكن المعنى واضح في ذهنها كأن الصعوبات تنبع من ضرورة النقل من لغة إلى لغة. هل وضعت

هذه الأسئلة على نفسها منذ زمن بعيد وأجابت عنها أجوبة لا تقبل التعديل؟

«وما فائدة مجيئك إلى المغرب؟

ـ إن التحليل النفساني يوجد فيما يكتبه أبناء البلد والكتب ترسل من قارة إلى قارة. يبقى الوصف المباشر للحياة العادية. يحتقر أبناء البلد الحياة اليومية والرجل العادي.

ـ وأنا؟ هل أحشر ضمن ظواهر الحياة العادية؟

ـ نعم. لا فيما تعلن أو تضمر بل فيما تفعل أو تدر.

ـ هل أبقى طويلاً تحت المراقبة؟»

هل تتطور ابتسامتها إلى قهقهة؟[24] لا. لم يتغير شيء من قسمات وجهها.

«لن أمكث طويلاً. أود لو أن أبدأ من الآن اتصالاتي في الصديقية. هل أجد صعوبة بسبب السكن؟

ـ ها أنت تحتاجين إليّ!؟»

سكوت.

«السكن أمر هين. دار الآباء والأجداد تحت تصرفك. سترحب بك امرأة عمي. الصعوبات المحتملة من نوع آخر[25]. هل فكرت فيها مسبقاً؟

ـ نعم. تلقيت مثل باقي الباحثين مناشير في الموضوع؟»

سيعرض الموظفون والشبان والنساء في الصديقية مشكلاتهم على مارية بأمانة وصراحة ودقة. امرأة في أوج النضج والأناقة.

مؤدبة، متعلمة، تأتي من بعيد لتخاطب الأرملة المتباكية والفتاة الحالمة والموظف المنفي والبقال الذي ينشّ الذبان والشاب المتمرد وكأنها تشاطرهم جميعاً آلامهم وآمالهم، كيف لا يمنحونها ثقتهم، أو على أقل تقدير، لا يحترمونها كما احترمها الضابط في المطار؟

«وهل ترافقني إلى الصديقية؟

ـ أول الأمر الأفضل أن تذهبي إلى المدينة وحدك. استقرّي في الدار. انتظري الغد وقدّمي نفسك إلى السلطات المحلية موضّحة أهداف وبرنامج عملك. ستجدين كل مساعدة، وربما إلى حد المضايقة.

ـ أعرف ما تقصد وأعرف كيف أتصرف.»

لفّنا الصمت بأجنحته السوداء وقطع حبل الاتصال بيننا. لقد كتبت إليّ بدون واعز خاص. وجدت في مذكرتها اسمي مقابل الدار البيضاء كما تجد باولو مقابل روما، هنري مقابل باريس، كارلوس مقابل مدريد، فيليب مقابل لندن..

ـ 20 ـ

«ما عرفتك حتى التفت نحو البار. كيف حالك؟»

إنه صوت جليل.

«أهلاً! أهلاً!

ـ أنت أيضاً من أصحاب الواحات؟

ـ لست رجل مال وأعمال مثلك.

ـ قدمني أولاً يا سيدي!

ـ هذا جليل، رجل أعمال ومبادرات..

ـ اكتف بالمهنة.

ـ طيب. هذا جليل المحامي. قرأنا معاً، خدمنا معاً الدولة ثم تحررنا معاً. وهذه أستاذة جاءت من بعيد لتراقب حياة المغربي العادي.»

انحنى جليل وقبّل يد مارية مظهراً التقدير والإعجاب.

«داري فارغة كما تعلم. ليس فيها إلا العساس. وصلت اليوم من أبيدجان عبر باريس وفضلت أن آتي إلى الواحات. لماذا لا ترافقني مع السيدة وتكون لنا جلسة؟»

صمت وتردّد.

«ها أنا في البار أنتظر.»

مارية تبتسم إلى جليل ابتسامتها الوضاحة المبهمة.

ـ 21 ـ

« ـ ما دمت تريدين وصف الحياة كما هي، اغتنمي هذه الفرصة. جليل، يعيش فقط، لا يتفلسف، وداره أجمل من كثير من الفنادق.

ـ هذا بالضبط ما خطر ببالي. هل جليل محام فعلاً؟

ـ هل يوجد في الدنيا محام محام أو أستاذ أستاذ، لا بد لهؤلاء من مهنة ثانية. حصل جليل على إجازة في الحقوق،

لكني ما رأيته قط في مكتب أو سمعته يرافع في محكمة. أراه دائماً برفقة رجال أعمال، مغاربة وأجانب. يقال إنه غني ويعيش كالأغنياء. هذا كل ما أعلم.

ـ وأنت ماذا تفعل؟

ـ أشتغل الآن كمصحح.

ـ مصحح؟

ـ نعم. أصحح الأخطاء التي ترتكب في حق لغة الأجنبي.

ـ أهو عمل مفيد؟

ـ مفيد مادياً وأدبياً. أتقاضى أكثر مما لو كنت أكتب المقالات بنفسي ويفضل لي وقت لأفكر في أعمالي الخاصة.

ـ حتى وأنت تصحح أخطاء الغير؟

ـ أقرأ بعيني وأصحح بيدي.

ـ ولا تخطئ؟

ـ الأمر كله رياضة.

ـ أعلم أن كبريات الصحف تؤدي لخطاطي القصص المصورة أكثر مما تؤدي لكبار المعلقين السياسيين.

ـ أدركت بعد تجربة مرة أن الفكرة التي قد تقلب الدنيا رأساً على عقب لا تزيد قيمتها على استيفاء رأس المال الضروري لتحويلها إلى عبارة مادية.

ـ وهذا لا يبعدك عن الكتابة؟

ـ تعلمت صناعة واحدة، صناعة الكلمة، فأمارسها رغماً عني.

ـ وقبل أن تتحول إلى مصحح ماذا فعلت؟

ـ مارست الحياة. كنت أنتظر.

ـ ماذا؟

ـ أن ينقشع الظلام ويبزغ الفجر أو أن أصالح القدر. انتظرت أشخاصاً وأقوالاً وحوادث ثم طال الانتظار حتى أوشكت أن أنسى معنى الأمل.

ـ وهل نسيت معنى الأمل؟

ـ نعم. . إذا كانت علامة النسيان أن تستحضر الشعور بعد جهد وتدبير.»

صمت.

ـ 22 ـ

إشراقة بعد الدندنة. انزويت إلى قصري المحروس، قصر التجاوب مع الذات الدفينة. للكلام معنى غير المضمون المتداول، تتداخل فيه الوقائع والتخمينات والتحليلات. قصر التجاوب في أعماق الفؤاد، ينفتح في آخر الليل إذا سنحت السوانح ومنّت الأيام. الجمعة. يا للخسارة![26] **أنلزمكموها وأنتم لها كارهون!** السبت. فتحت أبواب السماء وتهاطل المطر على المدينة ساعات وساعات بلا انقطاع. ماتت عجائز وهوت سقوف وتحطمت سيارات. أهو يوم الحساب؟ يوم تذهل المرضعة عما أرضعت؟ الأحد. صحا الجو واسترجعت السماء

زرقتها، زرقة ماكريت، زرقة السماء العميقة في حلم عميق..

ـ 23 ـ

«لبعض الكتاب الطليان[27] قصة مؤثرة جداً، قصة مناضل قاوم الفاشية وبرهن على شجاعة وثبات ضمنا له إعجاب الجميع. لم يجرؤ خصومه على سجنه أو قتله أو نفيه وتركوه يحمل مشعل المعارضة. ولما توفي سمح لأنصاره أن ينظموا حفلاً تأبينياً. أقيم الحفل وحضره آلاف من الناس، تتابع الخطباء ونوّهوا بإخلاصه ووفائه، والكلمات تتضخم والتصفيقات تحتد والحماس يقوى. ثم يباغت القارئ شعور غريب مؤلم أن الأيام قد حولت ذلك المناضل المقدام في المرحلة الأخيرة إلى دمية ينفخ فيها الريح. تحتمل القصة تأويلات مختلفة. إيجابية وسلبية، لكن يطفو فوق كل تأويل واقع مأساة رجل كان أكبر بكثير من اللباس الذي فصّله له القدر.»

استمعت إليّ مارية والاهتمام باد على وجهها، لكنها كانت في نفس الوقت تسترق نظرات إلى البار فتذكرت دعوة جليل. قمت متجهاً نحو صديقي:

«معذرة.. هذه فتاة عرفتها منذ خمسة عشر عاماً. ارتحلت عن المغرب ثم عادت اليوم. لنا أسرار كثيرة.

ـ هل هي مغربية؟

ـ وماذا ظننتَ؟

ـ ظننت أنها لبنانية، عراقية..

ـ مغربية أصيلة. اسبقنا إلى الفيلا، سنلحق بك حالاً.»

أديت ثمن الوجبة ثم أخذت معطف مارية واقتربت منها:

«عليك أن تلبسي المعطف. سنذهب إلى حي كثير الرطوبة.»

خارج المطعم الجو بارد مشبع بالندى، ينبئ باقتراب الفجر. الشارع فارغ. السيارات رابضة على الرصيف، تضيئها مصابيح كهربائية باهتة مثبتة في حائط العمارات على مستوى الطابق الأول. سؤالي الدائم: يا حارس الليل ما خبر الليل؟[28]

ـ 24 ـ

بعد محاولات عديدة لتسخين المحرك درجت السيارة. درنا أمام مقهى المارنيان وتبعنا الشارع التجاري نحو ربوة أنفا. قطعنا الساحة حيث تتحاذى المدائن ولفينا مرتين قبل أن نسير في شارع أنفا الذي تتوسطه حدائق الحلوة والأقحوان ومسك الليل. ومارية تنظر إلى البنايات كأنها لم تغادر المدينة أبداً. لم تبد أي اشمئزاز أو استغراب. إنه الليل على كل حال.

«جليل يدخل إلى بيته لينام فقط. يتغدى ويتعشى دائماً في المطاعم إما داعياً أو مدعواً. سيقول لنا كلمة أو كلمتين قبل أن يودعنا.

ـ ولم ألح علينا؟.

ـ عادة، وعادة مربحة.

ـ كيف؟

ـ حياته اتصالات، فيها يرتع ومنها ينتفع.»

وصلنا إلى دار جليل ورأيناه خارجاً من الكراج. وضع رجليه على العتبة فاشتعلت الأنوار خارج الدار وداخلها كأن زراً واحداً يتحكم في مصابيح البوابة والصالون والسقف والحديقة وبرزت الدار في العتمة على شكل ثلاث مربعات، واحد في الوسط والآخران يتفرعان عنه على انحراف.

«منذ أن سكن الناس هذا الحي وهم يحلمون بالمراكب، كل تصاميم الدور مستوحاة من السفن.. يذكرك البعض بمشرفة أو شوافة أو قمرة والبعض الآخر يوحي إليك بزورق مقلوب أو بمركب مائل على جنبه كهذه الدار.

ـ أولم يصمم جليل هذه الدار؟

ـ لا، ورثها عن الأجانب.»

تقدم جليل نحونا.

«كنا نتأمل في هندسة هذه الدارة.

ـ لقد سئمت منها. لو وجدت من يريحني منها!»

تقع صالة الاستقبال مباشرة بعد البوابة، واسعة، ساطعة، تطل على حديقة شاسعة تحيط بمسبح مضاء من كل جوانبه يبدو من الصالة بحيرة دكناء بين الخضير وسياج من الشجر يلوح في سواد الليل. قلت لمارية:

«هذه الشجرة التي تظل المسبح نخلة والسياج من الحور.

أتعلمين من أين جلبت النُقل؟ النخلة من البرتغال والحور من إيطاليا.

ـ وما هو الشجر البلدي؟

ـ الأنواع التي لم يكشف لها بعد عن أصول أجنبية هي الزيتون والرتم والأرجان.»

علّق جليل: «تهتم الآن بالشجر؟

ـ بالأسماء فقط.»

توجه جليل إلى خزانة كتب وضغط على زر في جانبها فتحرر المجر الأسفل وانزلق آلياً، كاشفاً عن خوان عليه زجاجات وكؤوس وسطل ثلج وأطباق مملوءة باللوز والفستق والجبنة والزيتون. انزلق المجر فوق الزليج ببطء فملأ الحيز الفارغ بين صفين من المقاعد الوثيرة. فقال جليل: «ليتحمل كل واحد وزر نفسه.» جلسنا حول هذا الخوان المستخرج من العدم وبعد أخذ ورد صرخت مارية: «سأتناول مشروباً يرافق اسمي لكن بلا دم لأني مسالمة.»[29] فاستطرد جليل: «وحتى لو كنت فتاكة لوجدت ما يوافق ذوقك. أما أنا فإني وفيّ للوسكي، مشروب المسؤولين الجادين.

ـ وأنا للجعة، مشروب العاطلين.»

علّق جليل: «صحيح، أنت والعاطل سواء. والله ما تكتب جريدتك لا يستحق حتى أن أبصق عليه[30].

ـ ع.. ع.. معنا سيدة!

ـ عذراً.. لكن، الحق يا سيدتي، لو قرأت ما يكتبون ولو

عرفت ما نعاني لتحريك هذا البلد لما استغربت مما أقول.»

ابتسمت مارية ابتسامة هادئة: «رجال الأعمال دائماً ساخطون ولهجتهم دائماً صريحة.»

قلت لجليل: «ما كنت أعرف أنك تقرأ الصحف.

ـ لا أحتاج أن أقرأ لأعرف ما فيها.

ـ هذا حق. أنا أيضاً لا أقرأ ما أصحح وأعرف ما فيه كما لو كتبته بقلمي.

ـ إنك تنسى أن الدولة تهتم بالجرائد مع أن الجميع يعلم أن أصحابها يجهلون مبادئ الاقتصاد.»

قالت مارية مستفسرة: «وماذا تنتظر أنت من الدولة؟»

أفرغ جليل كأسه وملأ كأساً ثانياً ثم أجاب: «اسمع أنت أيضاً يا ادريس، يجب على الدولة إما أن تقوم بكل شيء وإما أن تتخلى لنا عن كل شيء. إننا باتصال دائم مع الأجانب، نراهم يفضلون التعامل مع الدول التي تتخذ مسؤولياتها كاملة. نحن لا نضمن ولا نشجع المصالح الأجنبية، فهي غير مطمئنة. إذا أعطيناها، نحن رجال الأعمال، ضمانات قيل: في تصرفنا عدم ثقة، وإذا ترددنا رفض الأجانب إعانتنا بأموالهم وخبرتهم.»

قالت مارية لجليل: «هل تفضل فعلاً أن تقوم الدولة بكل شيء؟

ـ هذا احتمال.. أنا رجل وساطة واتصال وتعارف.. الحاجة إليّ مستمرة. إذن ماذا أخسر؟

ـ سينقص الربح.

ـ لكنه سيكون مضموناً.» ثم متجهاً إلى إدريس: «المغربي ذكي ونشيط لو أطلق الحكام العنان وقالوا: ها ميدان الربح تفضلوا، تنافسوا، تعاندوا..

ـ أنا لا أفهم الاقتصاد بشهادتك أنت. حاور مارية، هي أدرى مني بالموضوع.»

علقت مارية: «أشد الناس معارضة للحكومة وأكثرهم حنقاً عليها رجال الأعمال.» فأتم جليل: «لذلك يموتون بسكتة قلب أو شلطة دماغ.» أنهى جليل كأسه الثاني وقال معاتباً: «إني أجري وحدي بلا رفيق.» أخذ كأس مارية، أفرغه ووضع فيه قطعة ثلج. قلت: «ما كنت أعرف هذا الخوان السحري. هل يحول الماء إلى ثلج؟» ضحك جليل: «لا. إنما يحافظ عليه يوماً كاملاً. تضع الثلج في الصباح مع الزجاجات والكؤوس ويبقى على حاله طول النهار.

ـ ثلاجة متنقلة إذن.

ـ لكن على نحو الترموس، القلب معزول عن الهواء الخارجي.»

ملأ جليل كأس مارية، وضع أمامي زجاجة جعة واستأذن: «ادريس، هذه دارك، تعرف جناح الضيوف والحمام وبيت الحارس والمطبخ. إني أستيقظ كل يوم قبل الثامنة.» انحنى على يد مارية ورفع يده اليسرى مشيراً إليّ ثم قصد الجناح الأيسر واختفى.

ـ 25 ـ

«يسكن جليل وحده في هذه الدار؟

ـ كانت له زوجة أنجبت له طفلاً وطفلة. اغتنمت غيابه مرة وسافرت مع الطفلين إلى فرنسا ولم ترجع.

ـ كنت أظن أن الرجال هم الذين يودعون زوجاتهم في الصباح ولا يرجعون في المساء.

ـ هنا المرأة هي التي تهرب.

ـ والسبب؟

ـ السأم حسب ما يقال.

ـ والأولاد؟

ـ منهم من يعود بعد حين، خاصة الذكور.»

سكوت.

«هل هي بداية مشجعة؟

ـ مشجعة لو كنت أبحث في مشكلات المدينة الكبيرة.

ـ وما الفرق بين المدينة الكبيرة والصغيرة؟

ـ أتمنى أن أسمع في الصغيرة كلاماً غير كلام جليل.

ـ أولم يقنعك كلام جليل؟

ـ أقنعني تماماً. لكن ماذا أستنتج منه؟ إن الفكر الاقتصادي بدأ يغزو عقول بعض المغاربة. هذه نتيجة لا تساوي مصاريف النقل والإقامة.

ـ وهل يهمك أن تري وجه المدينة الآخر؟

ـ أتعني المدينة القديمة؟ إني جئت لأفحص مدينة عتيقة بشرط أن تكون بعيدة عن تأثير الأجنبي. إن كنت تعني الأحياء الجديدة البائسة فهي مرتبطة بهذا الحي وليس لي أن أعمل في ميدان يشتغل فيه غيري.»

جواب مؤلم ولكنه صادق. كم من زائرة تتظاهر بالتعاطف مع البؤساء وتنساهم حين تضع قدميها في الطائرة، وكم من صحيفة تذرف دموع التماسيح على فقر المعوزين وهدفها الوحيد الزيادة في عدد قرائها.

تعلمت مارية الصدق في غربتها الطويلة.. أو المكر. لم تسأل منذ أن وصلت عن أسرتها، عمن مات وعمن بقي على قيد الحياة.

«إنك لا تريدين أن تري أحداً من أقربائك؟»

قالت مارية بنبرة حادة: «لا.

ـ اعتبروك ميتة، لك الحق أن تعتبريهم أمواتاً. وحيدة، حرة، يتيمة، مغتربة، سائحة... هذه أوصافك.

ـ وأستحق أوصافاً أخرى.»

«وعائلتك؟»

تفوهتُ بغير وعي مني ثم قلت: «لا أريد أن أكلمك بالليل عن أحزان النهار. حاولت أن أدفن تلك الأحزان في الكلمات ولم أرض بالنتيجة.»

نظرت إلى مارية فلمحت خلف ابتسامتها اللاصقة بشفتيها عابراً من التهكم. لعله التعب!

ـ 26 ـ

«أليس من الغريب أن يكون رائد الأدب العربي المعاصر أعمى وأن يكون أحد كبار أدباء العصر الكلاسيكي أيضاً أعمى؟[31].

ـ قد تكون صدفة.

ـ وقد تكون إشارة إلى حقيقة دائمة وهي أن الأديب العربي غير مطالب بالاطلاع على العالم الخارجي، حسبه الانغماس في اللغة.

ـ ما هو البديل؟

ـ الانغماس في الطبيعة. آه، لو أمكننا أن نصف دقيقة دقيقة حركات الصياد إذ يصيد والمرأة إذ تعجن والطير إذ يطير والجندي إذ يطلق النار. نضع مقابل كل حركة الكلمة المناسبة والذهن فارغ لأننا مثل هؤلاء إذ يفعلون ما يفعلون، حضور كلي في عملنا.. لكن.. للأسف، ذهننا دائماً مليء بالأفكار وكلماتنا مشحونة بالأغراض..»

لاحظت مارية بارتياح كبير: «طموحك إذن وصف الطبيعة كما هي بدون زيادة.

ـ وبدون اطمئنان إلى النتيجة والهدف.

ـ رائد الأدب العربي المعاصر، ألم يصف شيئاً؟

ـ بل كرّس جهده للوصف. كان يسأل زوجته أو رفيقه عن جبال الألب وبحيرات سويسرة ويصفها مرة كأنها لم تُسكن أبداً ومرة كأنها لم تخلق إلا لخدمة الإنسان. مرة الغدير غدير ومرة الغدير سمفونية. الغدير مادة، الغدير عقبة تعترض الصياد أو السابح أو الجذّاف، هذا ما لم يشعر به أبداً.

ـ وأنت كيف تشعر به؟

ـ إذا كتبت: وجه مارية كالبدر إذا بدر، أو الليل طويل كفراق الخليل، طبقت قواعد النحو ولم أقل شيئاً عن الواقع. يستوي في هذا الأعمى والبصير.

ـ هل في وسعك أن تنغمس في الطبيعة وتنسى الذات؟

ـ أنا، في زمني هذا وبين أقراني، لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ لأن غشاوات موروثة تحجب عن عيني النور.

ـ لماذا تحاول إذن؟

ـ لأني لم أتعلم من الرموز سوى الحروف.»

بدأت أحس بمفعول السهر، أغالب بصعوبة التثاؤب. التفت إلى مارية فأجدها لامعة وضاءة، لم يتخبّل شعرها ولم تتعطل زينتها. هكذا بدا لي. قلت: «رجعنا إلى نقطة البدء. إذا كنت عازمة على السفر اليوم، الأفضل أن تنالي قسطاً من الراحة.»

قامت بدون أن تبدي أية ملاحظة. اتجهنا نحو الجناح

الأيسر. وجدنا أمام الغرفة الأولى الحقيبة الحمراء.

سألت مارية: «لم تكن أنت تنوي النوم هنا.»

أجبت: «كل شيء مهيأ، المنامة، المحم، البلغة وحتى فرشاة الأسنان.

ـ هذه دار منظمة كأنها فندق فخم.

ـ إنها طبيعة الوسطاء.»

وقفت على العتبة ودخلت مارية إلى الغرفة فوجدتها مجهزة تمام التجهيز. تمنيت لها مناماً طيباً وابتعدت.

ـ 27 ـ

ـ لا أثر لانفلاق الفجر. يا حارس الليل، ماذا عن الليل؟ الكتابة صناعة، الصانع هو الكاتب والأداة اللغة والمادة الموضوع. الموضوع غير موحد واللغة مشتتة منذ آلاف السنين والكاتب هائم في أحزانه. أين نقطة الارتكاز؟ أين حيِّز الأدب؟ كلنا يتيم. الفرق واضح بين الوصف والتحليل، بين النضج والمراهقة. مشعوذ من يدعي أن أسباب النضج في الذات، في الخلايا والمورثات. لو هاجرت لنجوت إلى بر النضج. لا مجال للشك بعد أن رأيت مارية؟ هل أحب أن أحل محلها؟ لا أدري. إن المفصوم لا يتمنى أن يختفي عالم من عالميه. حذار، حذار، لا ترتبط بمارية من جديد. لو فعلت لرجعت إلى حيث كنت قبل خمسة عشر عاماً. هل تغيرت ونضجت طوال هذه المدة؟

جاهدت وصابرت واحتملت، خمسة عشر عاماً من التجارب في فنون احتمال الحياة. ستختفي نتائج الرياضة من عقلك وجسمك إذا أنت ارتبطت بمارية من جديد، إذا أنت تعلقت بشبح الماضي. كل الحيل والمراوغات لتنفلت من أذى الناس، لتخفف من وقع الأخبار المؤلمة وصدى الآمال الضائعة! لقد حاورت مارية أكثر من اللازم. غداً ودِّعها بسلام وابتعد عنها. ماذا تريد منك؟ أن تقتصد الزمن والمصاريف وأن تستغني عن البحث في الكتب والصحف. أعطها ما تريد وودعها بسلام. تعودت على الوحدانية بعد طول معاناة، دافع عن وحدانيتك! لا فائدة في البحث عن المسؤوليات والأسباب. الحاصل أنك لم تعد تضيق الآن بالوحدة بعد أن دفنت آمال العشرة والأنس. كنت تمر وأنت طالب قرب مقهى المارنيان، غاصاً بالزبناء، وكنت تتمنى لو تسكن شقة في الطابق العاشر تطل من غرفة النوم على البحر ومن المطبخ على المقهى. ها أنت تسكن الشقة ذاتها، العمارات تحجب عنك رؤية البحر والمقهى فارغ طوال النهار باستثناء ثلاثة أو أربعة رجال مجتمعين في أقصى نضد البار يعبون الجعة عباً.. قالت المرأة التي ذهبت إلى حال سبيلها: إنك لا تعرف معنى للحياة الزوجية، إنك عشت وستموت وحيداً، إنك لم تتزوج إلا لتنجب. قالت: إنك ترى في الزوجة الأم وربة المنزل لا المرأة.. قالت وقالت ثم اختنقت من تدفق الكلمات وذهبت إلى حال سبيلها.. يعمر.. ما عمر.. العذر جاهز: كفاية أولاد! كلمنا عن التميم وخلينا من الخديج[32].. سفيه من يعلق آماله بنطفة في رحم امرأة.. لو لم.. لو ما.. لولا.. لو كان..

جحيم النساء. أردت فعلاً أن تكون أباً لتصبح مسؤولاً عن حياة مخلوق ضعيف محتاج، لكي تعلق آمالك بالمستقبل وتتعود على الصبر والانتظار. لكن المولود مات قبل أن يعيش، بل دفن قبل أن يولد في وقته. رأيت المقبرة، أول ما رأيتها، لدفن مخلوق نحيف مزرق، كفنه قطعة كتان ونعشه **قادوس**. من فكر في هذا البلد أن يدفن الأطفال في القواديس؟.. يا للخسارة! **أنلزمكموها وأنتم لها كارهون**؟. فتحت أبواب السماء وسقط المطر فهدمت دور وهوت سقوف، أهو اليوم الموقوت؟.. تعلمتَ الانتظار، حافظ على المكسب واحترز، احترز من هجمة الماضي، من إحياء الآمال المدفونة. تأخرت أسبوعاً فمات وهل إلى رؤيته من سبيل؟. **تدمع العين ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والقلب**[33].. احترز من نفسك. مارية، لن تطلب منك إلا ما تستطيع.. تهيأ للفراق.. لم تتهيأ لفراق نعمان وفراق الأب وفراق عناق الريح.. تهيأ واعد العدّة هذه المرة، هنا، في غرفة مظلمة، في بيت فاخر موروث محاط بسياج من الحور المجلوب من إيطاليا..

ـ 28 ـ

استيقظت وأنا أحس بدوار كأني على ظهر باخرة تهزها أمواج بحر هائج. نور النهار شاحب، ستائر النافذة مسدلة. قمت من الفراش بصعوبة بالغة، كل عضو من أعضائي يتبرم من الحركة. توجهت إلى الحمام ونظرت إلى وجهي: لحية مخبلة، شعر أشعث لم يمسسه مقص حجام منذ شهور. يا له من وجه بئيس!

هل رأيتَ الغراب جاثماً على المدينة؟ اغتسلت بالماء البارد، حككت أسناني، تمضمضت، استنشقت، غرغرت، شربت، ثم خرجت أبحث عن مارية اللامعة. وجدتها جالسة على كرسي حديدي جنب المسبح تحت النخلة، وضاءة، مسرحة الشعر، مزينة الوجه، ملفوفة في معطفها الأحمر، تماماً كما كانت بالأمس. لم تسمع بغراب الشؤم الذي يحجب أشعة الحياة ويمص الدم.

«صباح الخير. أنت آخر من يستقبل النهار.

ـ كنت آخر من ودّع الليل. كيف نمت؟

ـ نوماً هنيئاً مريحاً.

ـ هل أفطرت؟

ـ لم أر أحداً في الدار.

ـ هذه عادة جليل. يخرج ويترك الضيوف أحراراً. لكن كل شيء مهيأ إذا أردت أن نفطر هنا.

ـ أريد أن أعرف أولاً أوقات السفر إلى الصديقية.

ـ الأفضل إذن أن نذهب إلى قلب المدينة.»

عدنا إلى قاعة الاستقبال. تقدمتُ إلى الجناح الأيسر وجئت بالحقيبة. لم يعرض لنا خادم أو طفل. يخيم الصمت على الدارة كأنها هجرت بعد أن مسّها ملك الموت بيد من صقيع. خرجنا وتركنا الباب يرتد آلياً على الصمت. تريد مارية أن تغادر البيضاء فوراً. لنقصد فوراً محطة الحافلات. سرنا في شوارع المدينة بالنهار كما سرنا فيها بالليل: ماريا تنظر ولا تعلق. وصلنا إلى

المحطة. رافقتها داخل مقهى المسافرين. جلست إلى مائدة وطلبت من النادل قهوة وهلاليات. اعتذرت وذهبت إلى شباك التذاكر. عدت بعد دقائق. جلست قبالة مارية وهي تأكل بهدوء وتأنق.

قلت: «مارية، أراني قد قصرت في حقك.» رفعت بصرها إليّ مستغربة: «لقد قمت بالواجب وأكثر.»

استرسلت: «قد تمنيت أن تطلبي مني أكثر مما فعلتِ. لن أرافقك الآن إلى الصديقية. إني أنكر المدينة كما هي الآن والمدينة التي أعرفها لن تكتشفيها أول الأمر. كنت أريد أن أحتفظ بمدينتي الخاصة حتى أصورها كما أدركتها. لم أنجح إلى حد الساعة إما لعدم القدرة أو لأنها ليست إلا تخيلات صبي. إذا رافقتك الآن لن أستحضرها أبداً.. في الواقع إني متردد، أتأرجح بين الأمل واليأس. قد ألحق بك وقد لا ألحق.. على أي حال حجزت لك في حافلة الثانية عشرة.

- أنا أفضل لو تذهب معي وتقدمني إلى المدينة. لكن افعل حسب ما ترى.. على أي حال إني أشكرك.»

ابتسمت ابتسامتها العريضة، الكاشفة الحاجبة.

إذا ذهبت إلى الصديقية سأقطع آخر رباط يربطني بآمال الصبا. سأكون وحيداً بالمعنى الكامل. سأرى كيف يعيش الإنسان الوحيد. هل يتحرر من التطلعات الخادعة ويستلذ طعم كل دقيقة من دقائق الحياة أم يستثقل الأيام والساعات؟

ـ 29 ـ

طلبت قهوة، رشفت منها، أعطيت لمارية عدة نصائح حول السفر والإقامة في الصديقية. قامت مارية وقمت. أخذت الحقيبة الحمراء. تقدمنا إلى مكتب تسجيل الحقائب. تسلمت مارية التوصيل والتذكرة ودخلت إلى منطقة الركوب. لمحتها تتحقق من رقم المقعد، تضع معطفها في الشبكة، تجلس، تلتفت مبتسمة ومشيرة إليّ بيدها، لوحت بيدي كذلك ثم استظهرت الحافلة. خرجت من المحطة وأنا أشعر أني أفلت من خطر محدق..

إني حر طليق إلى غاية السابعة مساء. لأرجع إلى المقهى!. جلست حيث جلست مارية أستمتع بحريتي الجديدة، أحاول أن أستمع إلى الدم يدب في العروق والعظام تصطك في المفاصل، أنظر إلى الدنيا بعد أن فقدت كل أبعادها.

ـ 30 ـ

.. تريستا مدينة وأكثر من مدينة. لون ونغمة. حد الإمبراطورية النمساوية، حد أوروبا المنكسرة. تريستا، كل مدينة هجرتها الحياة، روما بعد الجرمان، بغداد بعد التتار، الإسكندرية بلا لمعان.. يأس ولؤم ولذة فاترة.. (ها أنجيولينا تفكر وتبكي[34]).. ها علية تؤم باب مراكش بخطى وئيدة، علية، الخطر المحدق بروحنا.

- 31 -

جليل، أراه وسيماً نحيفاً أنيقاً يجلس الساعات الطوال في مقهى الفلور[35]، غرابي الشعر، نحاسي البشرة، مقصوص اللحية، إنجليزي اللباس. هندي من هنود الشرق. أمرّ أمام المقهى على الساعة التاسعة إلا ربعاً فأراه خلف الزجاج قدام كأس قهوة بالحليب وطبق هلاليات مدهونة بالعسل فيشير عليّ أن أدخل دقيقة فأعتذر. أذهب إلى المدرسة، أستمع إلى الدرسين الأول والثاني ثم أرجع فأجده في المكان نفسه. «هجمت عليّ فتاة وسيمة رشيقة أنيقة كلمتني في أشياء وأشياء ولم أستطع التملص منها.» هكذا كان جليل، ابن مراكش البهجة، ما قال لا قط[36]... أسكن خارج المدينة وأقضي فوق النصف ساعة في المترو وأصل إلى المدرسة في الوقت المقرر وهو يسكن الحي ولا يدرك أبداً الدروس لأنه لا يستطيع أن يقول لا! «كيف حصلت على غرفة في زنقة جاكوب؟» - «من مكتب مدام جرمان.. ألا تعرف مدام جرمان؟» - «أعرف الأستاذ جرمان الذي فهم الألياذة لأنه عاش مدة في المغرب»[37] - «لا علاقة» - «أعرف صابون جرمان الذي ينظف ولا يذوب.» - «هو المقصود، مات المسيو جرمان وترك الصابون والإسمنت والحديد والنحاس والأراضي والبنايات وصداقة الجلاوي[38] لمدام جرمان التي تعطف على الشباب المغربي[39]. لا بد أن تتعرف عليها، ستحتاج إليها يوماً من الأيام. إنها تسكن قريباً من هنا».. ساحة فرستنبرج: ديكور سيريالي أقيم لالتقاط صور أحد

أفلام بابست أو فريتز لانج[40] ثم استعمل لإخراج مسرحية في الهواء الطلق ثم احتفظت به البلدية خدمة لسمعة الحي الفنية، ساحة مربعة مغروسة بأشجار يابسة الغصون تحيط بها دور من طابق واحد، تنيرها مصابيح حديدية غازية. قادني جليل إلى دار من دورها. فتح الباب ودخلنا إلى بيت ضيق مظلم، بيت البواب. خرجنا من الباب الخلفي لنطلع على ساحة أوسع من الساحة السيريالية، مكسوة بالخضير مضاءة بمصابيح كهربائية أرضية قوية متوجهة كلها نحو الدار الحقيقية التي يدخل إليها بالعربة من زنقة جاكوب. قصر، كالقصور التي توجد في ضواحي باريس، مدفون في قلب المدينة. طلعنا الدرج الرخامي الفخم فاستقبلنا خادم لابساً **السموكينج** وقادنا نحو اليسار إلى مدخل وطيء، مدخل غار أو علبة ليلية. لما خرجنا من الظلمة إلى النور وجدنا أنفسنا داخل خيمة، من حجر لا من جلد أو وبر، بسمائها وأعمدتها وحصائرها ومضرباتها وحائطيتها، مليئة بالشباب تتوسطهم امرأة فتخاء مصبوغة الوجه مثقلة الصدر بالقلائد ومسورة الذراعين بالدماليج تلبس **دراعة** زعفرانية، شعرها ممشوط إلى الوراء مشدود بسفيفة صفراء. استقبلتنا فتاة نحيفة قصيرة، طفلة لم يكتمل نموها، سمراء، كحلاء، دقيقة الحروف سريعة الحركة. قبلت جليلاً على خديه الاثنين وسلمت عليّ بشيء من الاستعلاء ثم تقدمت نحو المرأة الفتخاء. «هذا جليل جاء متأخراً اليوم لكنه أتانا بضيف جديد.» خفضت المرأة بصرها فاحصة ثم تبسمت فغارت عيناها بين الجبهة والخدين ولم يعد يرى إلا سواد الرموش.

«أول مرة في باريس يا ابني، كيف وجدت الحياة في بلد الغيوم؟

ـ لم أطلع بعد على حياة الناس، أقضي طول أيامي في الحي الجامعي بين الطلبة الأجانب.»

ـ إتصل بطامو العزيزة.»

التفتت إلى جليل وأجلستني طامو في مؤخرة الجمع بين طلبة الطب والصيدلة. «المهم المحافظة على الأناقة.. الثروة الحقيقية هي الأناقة.. كانت لنا أيضاً أناقة من نوع خاص، قبل أن يتغلب العنصر الجرماني. ذهبت أول مرة إلى المغرب سنة 1927 ولم أكن أعرف سوى أزقة باسي الهادئة. فاستدعاني المقيم العام إلى حفلة في ناحية خنيفرة. رأيت هناك النساء يرقصن والرجال يتبارون بالبارود والأطفال يرعون الأغنام. اندهشت بل سكرت وتهت.. أولادي، يا أولادي، حافظوا على الأناقة.. أنا.. أنا..»

أسدلت المرأة جفنيها. أطرقت وغابت عنا، وطامو النحيفة تنظر إلى المدعوين آمرة: اسمعوا وتذكروا. لم تطل فترة التأمل الجماعي. عادت المرأة إلى الوجود ورفعت رأسها. قام المدعوون وتصافوا أمام طامو. يتقدم الواحد بعد الآخر ليقبل يد المرأة المثقلة بالخواتم. جاء دوري ففتحت المرأة عينيها وحدّقت فيّ. انحنيت فلم تمس شفتاي اليد. قالت المرأة. «لا تنسى اتصل بطامو» ورفعت يدها لكي أنحني من جديد وأمس بشفتي ظهر يدها. خرجنا من الخيمة متتابعين وانتظرنا في صالة الاستقبال حتى جاءت طامو وقادتنا نحو قاعة الأكل حيث وجدنا خداماً يلبسون الجبدور واقفين حول أخونة معدّة. جلسنا ولم تجلس

طامو. كانت تنتقل من خوان إلى خوان تكلم هذا وذاك في شؤون الدراسة والسكنى والمنح. أكلنا عشاء مغربياً صرفاً ـ حريرة، طاجن، كسكس، ليمون بالقرفة، شاي ـ ثم تعطرنا بماء الزهر. اقتربت مني طامو وأعطتني عنوان مكتبها. «اتصل بي في أي يوم من أيام العمل لأي غرض كان. وستتوصل طبعاً باستدعاء كلما نظمنا حفلاً. . ولا تنسى، اكتب رسالة شكر للمدام. سأدلك على الصيغة.» غادرنا قصر مدام جرمان في ساعة متقدمة من الليل. وقفتُ متردِّداً على رصيف زنقة جاكوب فقال أحد طلبة الحقوق: «هذه أول مرة تأتي إلى الخيمة؟ لا تهتم، إننا نأتي إليها لنتذكر طعم الأكل المغربي. يأتي البعض من أجل طامو، لكن بدون جدوى. إنها منحوتة من مرمر أسود. أما ألفاظ مدام جرمان فلا أحد يفهمها فيما أعتقد.» ـ «لماذا هذا الاهتمام بالطلبة؟» قهقه الطالب في الظلام. «ستفهم، ستفهم إذا واظبت على زيارة الخيمة. لا تنسى أن مسيو جرمان كدس الملايير من عرق المغاربة. إننا نسترجع بعض ما سلب منا. لا تخجل إذن، اطلب ما شئت وخذ كل ما عرض عليك بلا تردد ولا استحياء. ومع ذلك على مدام جرمان إمارات الهيبة!» ـ «نعم» ـ «كأنها اكتشفت ما لا عين رأت. ها. . ها. . يقال إنها كانت جميلة، رشيقة تعرض الأزياء في إحدى الدور الكبرى وتعرفت هناك على الباشا الجلاوي فاستدعاها وشغلها مضيفة في ملعب الكولف الشهير. ثم تحايلت على مسيو جرمان، أحد شركاء الباشا، حتى تزوّجها وكتب لها كل ما يملك قبل أن يموت. ورثت الثروة وعندما خانتها أناقة الجسم اكتشفت حب الطلبة المغاربة وأناقة الروح». .

لم أر بعد تلك الليلة خيمة مدام جرمان لكني احتفظت بعطف عميق على طامو النحيفة. وفي نهاية السنة الدراسية مررت كالعادة قرب الفلور فاستقبلني جليل بابتسامة غامضة لم أتبين مغزاها: «نجحت، هذا طبيعي.» هل كان يعني: تعوض هكذا ما ينقصك أم ماذا ينفع النجاح، المكتوبَ مكتوب؟. المهم أني كنت على يقين أنه لا يشعر بأي حسد نحوي. «سأكتفي بدراسة الحقوق، الحضور في الكلية غير ضروري، وهذا إجراء يوافقني تماماً. زرني في مراكش في نهاية الصيف، سنذهب إلى آسني وتيشْكا.» جليل لا يقطع اتصالاته بأي شخص، جليل لا يحسد أحداً، جليل أنيق ظاهراً وباطناً. . أرى بيته، بيت أبيه، وراء أكدال، دخاشيش في دخاشيش، حدائق داخلية بجانب حمامات ومطابخ، ناموسيات عالية، مخاد مطرزة بالذهب، أسرّة نحاسية، مرايا بندقية، وابورات إنجليزية، كؤوس نمساوية، خوامي إسبانية، حواجب يابانية، سجادات تركية وفي كل غرفة صور نساء حالمات ينظرن إلى قمم شاهقات تعممها الثلوج وإلى بحيرات هادئة تعكس في مياهها السحب والأشجار. دار تدخل إليها الأشياء لتكدس كأنها في متحف. «أوصاني أبي أن أشتري دائماً ولا أبيع أبداً، كل ما تراه اقتني قبل 1920 من الجديدة والصويرة من تجار وقناصل وأُوتي به هنا على ظهور البغال والجمال. . هكذا كانت تعيش البورجوازية الكومبرادورية.» جليل أنيق مؤدب، يرى هذه الأشياء المتنافرة ولا يتعجب، يبتسم لذكر البورجوازية. . جليل كله أدب وديبلوماسية، حوتة في الماء. أراه في مكتبه في الرباط يستقبلني بحرارة: «وأخيراً جئت! كدنا نيأس منك!»

يكلمني كلام الأخ لأخيه. أراه يصل إلى محل اجتماع المناضلين المسؤولين في جكوار تلمع في الغبش كأنها مشببة. ينزل منها ويصعد الدرج مسرعاً وكأن ضميره يوبخه على التأخير. يتناول الكلمة ليبرز مسؤولية الشباب الواعي وضرورة بناء الدولة الوطنية الديمقراطية رغم كل المعاكسات والمصالح المتكتلة بأسلوب حلو مقنع ممزوج بنكث وملح. عندما دخلت إلى مكتبه لأفاتحه في موضوع استئناف الدراسة وافقني في كل آرائي: «هذا هو الحق، التكوين هو المهم والاستعداد لما بعد هذه الحالة الانتقالية.. أنا أيضاً سأتبع طريقك بعد قليل..» جليل حوتة في الماء، طير في الهواء. أراه نحيفاً، رشيقاً، مطرقاً أمام المدعي العام: «ليست العملية اقتصادية أو تجارية أو سياحية، إنها سياسية استهدفت المس بسمعة البلاد وضرب التضامن العربي. كان المشروع في ظاهره يرمي إلى إنعاش السياحة فقام المتهم يروج للفكرة ونظم في فندق فخم حلقة دراسية استدعى لها كبار مصممي الأزياء والمخرجين والأدباء والصحفيين وحررت مقالات في الصحف الوطنية تشيد بالمشروع وتؤكد أنه سيمكن المغرب من مزاحمة إسبانيا. أسست شركة عالمية وتكون وفد توجّه إلى أمريكا «لبيع الفكرة» واستضافت الدولة المؤتمر السنوي للمكتب العالمي للسياحة وقام المتهم بكل هذا العمل الإعلامي. لولا كثرة معارفه في جميع الأوساط لما رأى المشروع النور. شيّد أول معهد حسب الأفكار الجديدة ودشّن العمل فيه وسط هرج ومرج. ثم لم يلبث أن انقلب الجو. احتدمت الأزمات السياسية في الشرق وتناقلت صحف

متخصصة إشاعات حول هذا المعهد. نشرت صور مشينة وقيل إن أفلاماً ممنوعة صورت فيه. استغل أعداء الوطن هذه الإشاعات فأقفل المعهد وفتح تحقيق...» وأجاب محامي جليل فيما أجاب: «حقاً كانت العملية مناورة ضد مقدسات الوطن لكنها كانت موجهة أيضاً ضد موكلي. القصة كلها قصة ثقة من جانبه وقصة خيانة من جانب شريكه..» وأتى بشهود اتفقوا على ذكر شهامته وكرمه ونشاطه وحبه لوطنه. جاؤوا من جهات مختلفة وقالوا بلسان واحد: «جليل دار كبيرة، جليل ولد ناس.» وزاد المحامي: «إذا كان يستحق أن يعاتب فلحسن نيته ولأنه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة.. آه لو كان كل شبابنا مثله حيوية ونشاطاً واندفاعاً حتى لو أخطأ من حين إلى حين!.. اشتغل جليل مع شريكه طيلة سنوات على أساس اقتسام المسؤولية، واحد في الداخل والآخر في الخارج. كان أول عمل مشترك تصدير سروج الخيل وكانت الجملة الإشهارية التي أنجحت المشروع: انظروا أفلام **الكاوبوي** ظهوركم مستقيمة ـ تحمس جليل للمشروع واستقال من منصبه في وزارة الاقتصاد وقال له آنذاك الوزير: المهم هو خدمة الوطن داخل أو خارج الإدارة. ارتفع حجم الصادرات وأصبحت العملية المثال الذي يجب أن تتبعه كل قطاعات الصناعة التقليدية. ثم تلت هذا المشروع مشاريع أخرى كلها مربحة. لما جاء الشريك بفكرة مستوحاة من أحلام الغربيين كما كشفت عنها بحوث علمية متواترة واقترح الإشهار التالي: عش أسبوعاً في قصور هارون الرشيد، لم يسترب موكلي لأن الاقتراح كان يسير في نفس الخط[41]. من

أين له أن ينبش على الأهداف الخفية؟ ألم يتفق الشهود على أنه لم يكن يهتم بالإدارة والتسيير؟ قام بعمله أي إقناع السلطات بأهمية المشروع ولم يذهب أبعد من هذا. سمع الإشاعات والاتهامات لأول مرة أثناء التحقيق، وغضب كما غضبنا جميعاً. .» أجمعت الصحف على أن محامي جليل أثبت حسن نية موكله بما لا يدع مجالاً للشك. كان الأثرياء يقولون في مجالسهم: «على الأقل هذا رجل مؤدب ربحت معه الدولة أكثر من مرة، يجب اعتبار هذه النقطة.» وكان المعوزون يقولون في جموعهم: «نية، والله نية، مشى ضحية **الربعة**[42]. واش تلعب مع الشيطان وتربح؟» ظهر جليل من جديد في أزقة مراكش وسلّم عليه الناس بأدب ممزوج بشيء من الخنوع. هل يمكن الحقد على جليل؟ شرع الناس يلتمسون منه العون وشرع جليل يمدهم بما يملك. أقبض الحوت في الماء! من هو جليل؟ ولد ناس وبركة. كيف يعرف ولد الناس؟ بركة. من هو ولد الناس؟ بركة يا سيدي!

2
الصديقية

- 32 -

أتذكر. قال المذيع العربي:

اختفى نجم من نجوم السياسة العربية[43]. وقال المذيع الفرنسي: العالم العربي يتيم. يتباكون عليه كلهم، الأنصار والخصوم، لأنه عاش مدة ثلاث سنوات كالنسر الكسير، مقصوص الأجنحة مبرود المخالب. قال: لا ينفع حذر من قدر ونسي جواب عمر.

لو لم يكن الحذر ينفع لكان الأمر به لغواً. متى، متى نعقل ما نقول؟ السماء ملبدة بالغيوم والجو كالرصاص الذائب. الريح راقدة والمطر محبوس وفي الطريق، تتابع السيارات، مصابيحها الأمامية منيرة، في صمت مقلق. أجنحة الكندور منشورة على البلد من البوغاز إلى الصحراء. يومها كان الذين يقولون إن العروبة قدر وسلاح يرثون أباهم الروحي وكنت أنا مشغولاً بالبكاء على أبي من الدم واللحم سائراً في هذه الطريق والطقس خريف أستمع إلى إذاعة القاهرة تصرخ: متى كنا عبيداً؟ وإلى

الإذاعة الفرنسية تحمل صوتاً رصيناً: يمكن أن نتنبأ باستسلام الجمهورية المتحدة إذا لم تتدخل روسيا وروسيا لا تتدخل إذا لم تكن واثقة من النجاح. . أستمع إلى هذا وأنا في طريقي لرؤية قبر أبي. لكم منيت نفسي أني سأخصص أسبوعاً كاملاً لأسأل أبي عن حوادث حياته، أسجل صوته وأستفسره عن الألغاز التي لم أهتد إلى حلها منذ انتهاء عهد الصبا. كان يكلمني وأنا تلميذ في الثانوي عن عمر وعلي ظناً منه أن حياة الأقزام لا تهمّ الأطفال وكنت أصغي إليه باهتمام إلى أن اكتشفت أن الأحياء كلهم أقزام. فلجأ إلى الصمت ولجأت إلى الثرثرة. ثم توالت التجارب، اللاحقة تمحو السابقة، وتمنيت مراراً لو نستعيد مناقشاتنا فلم أجد إلى ذلك سبيلاً. كنت أقابله فأرجئ طرح الأسئلة الصعبة إلى أن أتفرغ ليوم المقابلة الكبرى. رأيته آخر مرة وأنا في طريقي إلى عمالة الإقليم. طرقت الباب وطلبت منه أن يرافقني. انتظرني في السيارة أمام مقرّ العمالة حتى استلمت الشهادة التي جئت من أجلها ثم ذهبنا إلى مطعم على شاطئ البحر. أكلنا وشربنا ثم تمشينا على الكورنيش ولم نقل شيئاً خطيراً. وبعد أسبوع دقّ جرس الهاتف: «البركة في رأسك، رحم الله الوالد.» كنت قد رتبت كل المسائل لأتفرغ بعد أسبوعين وأقضي معه أياماً طالما هيئت نفسي لها. تأخرت أسبوعين ولن أجد أبداً من يجيب عن أسئلتي. البركة في رأسي! أتعني العبارة أن العبء قد انتقل إليّ أم أن الموت قد أخطأني؟ عندما وصلت وجدت أبي قد دفن. هذه هي العادة. الإسراع بالدفن لكي يصل الميت في أقرب وقت إلى الجنة أو، ليستريح

منه المشيعون، إن كان إلى النار. ألقيت نظرة على القبر، تراب مرشوش. قبل الحادث كنت أتساءل: سأذرف الدمع مدراراً أم أتجلّد؟ ـ **المؤمن تسبقه دموعه** ـ فعرفت الجواب: إني لا أبكي عند الألم واليأس. أرفع البصر ثم أرجع البصر في الليل المنير وأعد آلاف النجوم التي قطع نورها ملايين الأميال والتي اختفى بعضها من الوجود قبل مئات السنين. علامَ البكاء؟ في الدار عشرات المعزين ينتظرون العشاء. لماذا غصت بهم الغرف؟ لتمضية الوقت والتسلي عن الحزن. التسلية في عد النجوم.. موعد غير مضبوط.. ثقة في الزمن الخائن. ظننت أن الزمن سيمهلني لأتهيأ للمقابلة الكبرى. إن النجوم لا تهوي لموت أحد والزمن لا يتخلف لإسعاد أحد. هل تطمئن نفسي بعد الآن؟ دفن أبي ودفن معه عهد البراءة. كنت أقول: هو المسؤول. اختفى فأصبحت المسؤول الوحيد عن نجاحي وإخفاقي، عن صحتي وسقمي. كنت واثقاً أنه سيكشف لي أسرار الحياة متى سألته صراحة. مات واستراح فعدت يتيماً كسائر الناس.

ـ 33 ـ

قال أبي:

عاد القائد من مأموريته قبيل الظهر فصلى ثم جلس في المراح الوسطاني المشمس ونادى على الخدم، الصغار والكبار، النساء والرجال، البيض والسود، أصحاب المائدة وأصحاب الأروى[44] جيء بالعبد صالح وقد أوثقت يداه بحبل مجدول. ألقي على

حصير مخضب وجلس على رأسه عبدان عملاقان وسمَّرا كتفيه بركبتيهما بينما أحكم عبدان آخران دورة **الفلقة** حتى ضغطت على العرقوبين كالملزم. أخذ القائد السياط من يد الحارس فأطرق العبيد استحياء وبكت الإماء في صمت ونظر الأطفال إلى القدمين الأفطحين بعيون لامعة. عد الحارس الضربات بصوت مبحوح حتى أعلن عن الدقة الثلاثين فوضع القائد **العصبة** ثم أخذ منديلاً أبيض معطراً بماء الزهر ومسح وجهه من العرق ثم ذهب بخطى سريعة ليتناول طعام الغداء. جاءت فاطنة، امرأة صالح، بالقطران والماء الفائر واختلت به في غرفة قصية. وفي الصباح جاءوا يتفقدونه فلم يجدوه. سألوا فاطنة فلم تخبر بشيء فقالوا سنعثر عليه قرب الدار. بحثوا عنه طول النهار والأيام التالية ولم يعثروا عليه. كان صالح يعرف خطوة خطوة طريق مراكش لكثرة ما ركبها مع مخدومه. لبس الأبيض، تقلد **الكمية** وانسل في الظلام بلا تردد. كل من لمحه بين **النزائل** كان يقول: هذا رقاص يحمل أخباراً مستعجلة. وفي مراكش فتحت له بسهولة أبواب المشور فتقدم يتمسح على الأرض قائلاً: «أنا عبد سيدنا» نظر إليه الوزير النحيف الأصفر بعيني حرباء وأمهله لينطق ثلاث مرات بالكلمة التقليدية. كرّر صالح العبارة مرة رابعة فأدرك الوزير أنها تعبر عن حقيقة. فقال: «اش عمل لك سيدك؟» - «ضربني» - «بحق أو بلا حق؟» لم يجب صالح. حدّق الوزير في **الجلابة** البيضاء **والخنجر** الذي كان يعكس أشعة الشمس المتسللة من كوة صغيرة في سقف **البنيقة** وتذكر التحف المكناسية البديعة المغلفة في منادل مطرزة التي كان يحملها في

جيوب البدعية الخابورية كلما صحب مخدومه. فأوشك أن ينادي على العون ويأمره أن يرجع العبد الآبق إلى سيده الكريم. فقال صالح: «أنا عبد سيدنا أعرف المطامير وما فيها.» فأمره بصوت حاد: «انهض وتكلم» رفع صالح رأسه وشرع يعد الخوابي والنقود ومواضع الدفن. «والله يا سيدي ما يفلت منها لويز ولا ضويلي. أعطني براءة ومخازنية.» وبعد ثلاثة أيام سمع الحارس صهيل الخيل قبل صلاة الصبح. خرج في الغبش ورأى جماعة فرسان تحت شجرة النبق حيث كان الفقيه الرافعي[45] يذاكر التلاميذ. فتردّد في الصمت صوت أحد المخازنية: «فيّق سيدك.» فأجاب: «هذا وقت خروجه» لزم الفرسان مكانهم تحت الشجرة يحدقون في الدار وهي تتمايز وراء الحارس الواقف في فرجيته البيضاء كالشبح. سرية تقابل حارساً بلا كلمة ولا حركة في انتظار خروج القائد. خرج القائد من الباب الجنوبي حين يتميز الخيط الأبيض من الأسود. خرج وتجمّد ـ انبلج الفجر وأضاء الكون فانهارت دولة العنف والكبرياء وانهد عالم التعاطف الكاذب. صاح المخزني: «أمر من سيدنا الكبير.» وأعاد الكلمة. تقدم الحارس بخطى ثابتة، تسلم الورقة وقبّلها ثم مكنها للقائد الذي قبّلها بدوره. لم يكن القائد في حاجة إلى الفقيه الرافعي لكي يقرأها له ويدله على جواب بليغ. لما لحظ الجمع تحت الشجرة تذكر قدمي صالح المشبعتين بالحمرة. بعد ثوان من الصمت أمر الحارس: «جي بفاطنة.» فاطنة الصغيرة القد، الشحمية اللون، التي اختارها هو زوجة لخادمه المقرب. نادى عليها مرة واحدة لتكبس رجليه وتغسلهما بماء الخز. وقع

ذلك قبل أن يتزوجها صالح. خرجت فاطنة من باب المراح ملفوفة في حائك أبيض كأنها طفلة دون البلوغ والصمت لا يقطعه نباح كلب ولا صياح ديك ولا أذان مؤذن، سوى صوت المخزني: «مركوب سيدنا.» رفع القائد يده ببطء ثم التفت ودخل إلى الدار من الباب الشمالي. كان يعلم أن الكلمة سلبت منه وأن كنوزه عادت لقطة[46]. لما أشرقت الشمس كانت الخوابي المطلية بتربة الترس الندية قد حملت على البغال وكانت فاطنة تمتطي الفرس كأنها تدربت على الركوب منذ عقود. همز الفرسان نحو الشرق ولم يلبث أن بلعهم الأفق. كان القائد يستطيع بلا شك أن يتدارك خيانة وصيفه لولا أن الدنيا انقلبت رأساً على عقب وملأتها صيحات مخيفة[47]، لولا أن الحملة جرفت كل شيء منتصب. بعد ثلاثة شهور طلع فرسان الدمار تحت شجرة النبق وقت الظهيرة. كانت الأبواب موصدة وكان البواب وحيداً في الزاوية اليسرى يحمل بوشفرة[48]. عرف بين الفرسان حمو الخماس الذي طرد من العزيب منذ عشر سنوات وتنقل بعد ذلك بين طنجة والبيضاء. صاح حمو: «ردمنا ديور القياد وبقت لنا هذه. ما بغينا للقايد إلا الخير. إلى كان معنا مرحبا وإلا يخرج من الدار بالعيال والحوائج. الدار لا بد تردم بحال الديور الأخرى. هذه هي القاعدة.» ثم زاد بلهجة الرجل الرصين: «ها أنتم حتى العصر.» همز الفرسان وابتعدوا تحت أشعة الشمس المحرقة فارتفع الغبار وراءهم. لم يكن الفقيه الرافعي حاضراً في الدار. اضطر القائد أن يقرر وحده في الأمر. ما انكشف الغبار وراء فرسان الدمار حتى فتح الباب الغربي

وشرعت النساء يخرجن الواحدة تلو الأخرى ويتقدمن نحو البغال المسرجة. كلما أقدمت إحداهن على الرجوع إلى الدار وأخذ ما نسيت من لباس أو أثاث ردها العسس بعنف. لم ينقذ مما في الدار إلا القليل. لم تفرغ المطامير من الحبوب ولا صناديق العرعار من العمائم والقفاطن. تركت على حالها الأواني والمواعين، أكياس السكر والملح، خوابي السمن والعسل، صناديق الشمع والشاي وكل ما يجلب من البوغاز[49] ويعرض في أهرية ماطو وبنهاس وفورد ـ ترك لينهب في يوم واحد ما ادخر منذ خمسين سنة. أنقذ الخدام ما خفّ وزنه وحملوه على البغال والحمير إلى دار المصيف بالقرب من ميدان موسم الحصاد[50]. لبس القائد جلابة الحبة[51] وسلهم الملف، تقلد الكمية ودلائل الخيرات كما كان يفعل كلما استدعى إلى مراكش. وقف أمام الباب الغربي يحدج صوب القافلة المتباعدة، مطمئن النفس، مجبور الخاطر. ما أحب أبداً هذه الدار ولا رضي بالقيادة بعدما رفضت المرأة العزيزة على قلبه أن تفارق أهلها والشاطئ. تحرر الآن من كل الأعباء. تقدّم الحارس بالجواد فامتطاه القائد بقفزة أخف من البرق وهمز نحو الغرب دون ما التفات إلى الدار المهددة.

ـ 34 ـ

قال أبي:

وجاء فرسان الدمار بعد صلاة العصر يركضون متتابعين. لم

قل كلمة. اكتفيت بإطلاق **عمارة** وتنحيت عن **الرتاج**. فكنت أحدهم ولم أبلغ السابعة عشرة. كنت أراهم ذاهبين عائدين ببطء ونظام كالعملة حين يحملون الأحجار والجير. توزعوا إلى فرق، كل فرقة انقسمت إلى قسمين: قسم يحمل من داخل الدار الزرابي والبطانيات والأكياس إلى حيث يقف القسم الآخر خارج الدار بجوار الخيل المربوطة. قلت للحارس. «ندخل دابا؟»[52] فأجاب: «حتى يخرجوا الجوايز.»[53] كنت قررت مغادرة المعمعة قبل أن يتذكر الفرسان المطامير. دخلت إلى الدار من الباب الوسطاني. كان الظل قد غزا المراح الكبير ولم أسمع سوى دوي يشبه ما كنت أسمع أيام الأفراح، أمام كل صالة وقف رجل بمكحلة. قال لي أحدهم: «سر لقدام. . ثمة بيوت بلا موالي.»[54] قطعت المراح بتؤدة واجتزت الرواق المزلج الذي يصل المراح الكبير بالمراح الدخلاني. لم أضع رجلي على العتبة حتى أوقفني رجل عرقان يحمل **مقراجاً** قديماً: «**إعط هذا** لحمو وارجع في الحال.» عدت على أثري ووضعت المقراج في المراح ثم دخلت إلى صالة فسيحة كان القائد يستريح فيها بعد العودة من جولاته التفقدية. لمحت في نصف ظلام رجالاً يحاولون اقتلاع سرير نحاسي فوقه ناموسية. وقفت على الأسكفة أنظر بإشفاق على الدار التي بدأت تتغير معالمها بسرعة. لهذا قال الأوائل: «بني وعلي، سر وخلي» صاح في وجهي صاحب المقراج: «أنا وحدي، كن شريكي!» ـ «ما عندي غرض بالمواعين.» ـ «عندي زوج صناديق غلبوني، جي معي.» مررنا وسط السطوان المزلج ودخلنا إلى الصالة الواقعة على اليسار.

أشار صاحبي إلى الصندوقين ووقف على الباب حامياً. اتجهت إلى سرجم[55] وبدفعة خنجر قوية قلعت المسامير. وجدت مفاتيح الصندوقين. صاح صاحبي: «جي للضوء!» كان في أحد الصندوقين كمية[56] سوسية وقفاطين ملف وقطع بزوي[57] وفي الثاني عصائب مطرزة وحيك خفيفة مخططة وبلاغي. قلت: «خذ كل شيء غير الكمية.» فأجاب: «القسمة في الآخر، ابق هنا.» أخذ القفاطين والحيك وخرج. بعد دقائق دخل إلى الصالة رجل عاري الرأس. رأى ما عندي فصاح: «أش هذا، كل شيء ديالك!»[58] قبض على العمائم والبلاغي وتفاصيل الكتان وخرج. انتظرت قليلاً ثم أمسكت بالكمية وانطلقت كالسهم عبر المراح الوسطاني قاصداً الباب الغربي. وجدت أمام الباب حصاناً قفزت على ظهره وهمزت نحو شجرة النبق وأنا أنادي على الحارس. قفز هو الآخر على فرس مسرج وركضنا في اتجاه البحر. مع غروب الشمس وقبل أن تؤخذ المصابيح ويقلع الرخام والخشب المنقوش وتنزع الجوائز وملابن النوافذ والأبواب ستسمع لا محالة طلقات حادة وأصوات مخنوقة في ظلام الغرف والأروقة. عدنا إلى الخبب بعد أن تحققنا أن أحداً لم يتبعنا. فتذكرت بغتة غرفة الفقيه الرافعي. فقال الحارس: «فتشتها ما فيها شيء.» ـ «الحمد لله.» وصلنا إلى ميدان الموسم على شاطئ المحيط قبل صلاة العشاء. رأينا في الظلام شبح الصومعة المقطوعة وركم السور القديم المتناثرة. كانت دار المصيف ما زالت تحتفظ برائحة الغمولة وكانت النوافذ تسمع صريراً كلما نفخ فيها ريح الغربي. قال القائد إن صهره قد أرسل

ـه رقصاً من الصديقية: «لازم نقل الصناديق هذه الليلة. . تهيأوا على راحتكم للسفر غداً. سيروا للضريح وما تخرجوا منه حتى يصلكم الخبر.» كان الصهر قد نال رتبة قائد رحا[59] بعد أعوام من الخدمة في الجيش ثم لما قلت الحركات تقاعد واشتغل بالكسب والمخالطة. تبع القائد نصيحة صهره. انطلقت القافلة المكوّنة من سبعة رجال وعشر نساء والأطفال تحاذي صخور الشاطئ وكدى رمال يغطيها نبات شحيح. كنت أعيد في خاطري أقوال الفقيه الرافعي وأترقب أن تنحت في الأفق قبة الولي الصالح[60]. «علاش الهموم، الأرض واسعة. خذ المحراث والمكحلة واجن من خير الرحمان. زمن الحرية ما يدوم. اسمع الناس: كل اللي بيدك قبل ما يجيء الروام.» انحرفت القافلة وخرقنا أرضاً قاحلة مليئة بالحجر والدوم، تطل على الفحص، موعد المجاهدين. أحجار محروقة. أرض مدكوكة، أسوار مهدومة، ككل المناطق التي فاجأها الكفر ودكتها الثورة. رجع القائد إلى محبوبته البيضاء ذات العينين العسليتين. ربطت الخيل في الأروى. سكنت النساء في الأرضي واستقل القائد بالفوقي المطل على أجنة المدينة وزرقة المحيط. ثم أقفل الباب الخرجاني المثقل بصفائح من حديد. وبعد أيام طرق في جوف الليل مبعوث حاكم المدينة يهنئ بالسلامة وينصح بالحيطة وعدم الدخول فيما لا يعني. قام بالمبادرة من عند نفسه خوفاً على منصبه. كان القائد يظن أنه سيعيش في هناء حتى يأتيه جواب صهره. مرّت عشرة أيام وتعود الجميع على الحياة الجديدة. ثم جاء حاكم المدينة محاطاً بأعوانه وطلب القائد ليبلغه أمراً من

العتبة الشريفة. قبلت البراءة ثم قرئت، فكانت تأمر ببعث القواد الذين هدمت دورهم إلى السدة العالية حسب المراسيم المرعية. كان الأمر نافذاً. تأسف القائد على غياب الفقيه الرافعي، كاتبه المطلع ومحدثه بعد صلاة العصر. سمع صهيل الخيل في الساحة التي رددت فيما بعد كل يوم ثلاثاء أصداء أخبار عنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن[61]. أرسل على أصغر أولاده وأعزهم لديه الذي جاء يرفل في قفطان أزرق، فضمه إلى صدره حتى كاد أن يخنقه وقبله كأنه يودع فيه بهجة الدنيا. ثم امتطى فرساً أشهب وتبع باقي القواد تتقدمهم كوكبة من المخازنية وتتبعهم كوكبة. بقيت أحرس الدار وأنتظر أخبار الصهر بعد أن أخبرته بما جرى. لم يرجع القائد إلى داره. نقل من سجن إلى سجن مدة تسع سنوات[62]، حسب تعاقب الوزراء، وسمع رفاقه في المطبق يحكون حكايات ذات فصول عن أبناء الأمراء والرعع الذين رأوا مكتوبهم في العظام وخطوط الرمل. طلع الصهر ونزل وفرق أموالاً لم يرثها عن الكبار والصغار حتى أدرك ما أراد. رد الحق إلى نصابه بتعيينه محل نسيبه وهكذا ختم حسد الأصهار ما فتحه حقد العبيد.

ـ 35 ـ

إن أبي كان لا يسلم بالقدر. فعادى الناس جميعاً حيث لم يستطع معاداة شخص بعينه. كانت قصة العبد صالح الجرثومة التي تسربت إلى قلبه فعششت وأفرخت وصبغت في عينيه الدنيا والرجال بلون لا يبهت.

ـ 36 ـ

أصل الفقيه الرافعي من الجنوب. أعرض عن صنعة أبيه[63] قبل أن يقصد مدن الشمال حيث رأى كيف ينجح طلاب الدنيا. عاد بعد موت أبيه إلى دار القيادة وقال إنه يخلف المرحوم في المسكن لا في الوظيف: لن يدل على كنز مدفون ولن يفجر عين ماء. فأجيب إلى ما أراد. أثثت له غرفة بعيدة عن مسكن الحجام والحداد والسراج ودخلها بكل ما يملك: صندوق صغير منقوش نقشاً صويرياً احتفظ به منذ أيام الطلب. روى الفقيه أخبار الأولين والمحدثين ورفض أن يؤرخ للقائد. حرّر رسائل في بعض المناسبات وأسدى نصائح في بعض المشكلات. نظّم حياته تنظيماً آلياً. يستيقظ قبيل صلاة الظهر فيغتسل ويأكل ثم يذهب عند القائد ليرشف كؤوس الشاي في جلسة العصر ويرجع إلى بيته بعد المغرب ليقرأ حتى انبلاج الفجر.

ـ 37 ـ

يقول أبي:

«كان إذا سمع بكتاب فاته رحل إلى صاحبه أو استعاره بواسطة. فكان يقرأه مرة واحدة ويحفظه عن ظهر قلب. هذه والله أعجوبة.» لم يكن أبي يعرف أن الكتب منقولة جميعها عن أصل واحد. ها الفقيه الرافعي في بيته الصغير يقرأ ويعيد وقائع عرفها منذ أن تعلم حروف الهجاء وها القائد يتخذ رفيقاً صاحب

أخبار. كان الفقيه ينزل إلى المدينة في كل شهر صحبة القافلة التي تحمل إلى المرفأ خوابي السمن وصناديق البيض ويجلس إلى باب التاجر المالطي يحاوره في تواريخ الدول الغابرة. يسمع المالطي أقوالاً تُردد ويشهد أدواراً لا تتجدد فيقول: «أخبارنا نقوش على النسفة وأخباركم ألغاز يهمهمها الريح في آذان الزمن.»[64] فيرد الفقيه: «الأعمال عناوين النفوس والمفاخر أدوار معروفة منذ القدم، يلعبها هذا أو ذلك بالقدر لا بالقدرة. نذكر الناس بها لإيقاظ السرائر ـ كلنا ذاهبون على طرائق متفرقة. منا من يصل أنيقاً وضاءً حافظاً للعهود ومنا من يصل أغبر ناسياً للحقوق. هكذا نحافظ على قواعد الكون.» ـ «ونحن على أشياء متراكمة.» ـ «عمل تافه. إن الأرض لا تنطق. اذهب إلى الفحص ترى أكواماً من التراب لا يميزها الجاهل ويستوحي منها العالم أدعية المجاهدين» ـ «والبردة؟»[65] ـ «تلك بدعة.» هكذا تحاورا ولست أدري أيهما كان أقرب إلى اليأس. كان المالطي من أخلاط البحر المتوسط الذين دفعتهم الرياح من الإسكندرية إلى جبل طارق وانتهى بهم المطاف إلى شاطئ المحيط. رددت ألسنة الناس أن الفقيه الرافعي والتاجر المالطي يتناظران حتى في أديان البراهمة. كانا فعلاً يتناقشان في دين البراهمة لأن عهد المناظرة حول سارة ومريم قد ولّى. وبعد نصف قرن أراد أحد الشبان أن ينصب للفقيه الرافعي تمثالاً. فخطب داخل الملعب البلدي بالصديقية أمام عدد قليل من المستمعين في فصل الخريف. هبت ريح بحرية طاردت كلمات الخطيب فعجز الحاضرون عن التقاطها وسمعها الصيادون والحطابون من وراء

النهر. أراد الشاب المتحمس أن يعيد الذاكرة إلى المدينة فلم تسعفه لأنها تعودت على القنوط ولأنها كانت تعرف حدساً سر الفقيه. دخل يوماً على القائد فوجده صحبة وصيفه صالح يتهيأ للسفر. شهده يلبس قفطاناً خابورياً ويتحزم بتكّة صفراء مطرّزة ويتعمّم بعمامة مكّية ويتقلد الكمية ودلائل الخيرات فوق كساء بزوي ناصع. قال القائد بحزم: «جاء استدعاء من مراكش.» فصلت القافلة المكونة من ستة فرسان وعشرين بغلة محملة بالمؤن والهدايا وأدركت النزالة قبل المغرب. أقيمت الخيام وطبخ العشاء وبعد الصلاة أصابت القائد غمة قاهرة فبكى طويلاً: «ماذا جنينا من كل هذا؟ أهكذا تكون الكلمة[66] ويكون النفوذ؟ اسمع ما يقول الناس: كل ما بيدك، الكفار بالباب. إن الله قد أشاح بوجهه عنا. . لو سمعت الدعوة!» لم يعقب الفقيه: «إن الله يمهل ولا يهمل، ينتقم للحقوق المنسية وينتصر للروح المكبوتة.» لأنه آلى على نفسه أن يرافق القائد ولا يخدمه بجوارحه أو بلسانه. عند موته لم يكن في الصندوق المنقوش سوى عقد بيع سانية ورثها عن أمه وورقات كتب فيها أبياتاً تافهة حول آداب الصحبة. وبعد نصف قرن يتأسف الشاب المتسرع: «آه، لو سجل ما علم!.» لم يورث الرافعي علمه لسبب قاهر. إنه اكتشف أن حدائق مراكش لم تتلف عن حقد أو غيرة بل عن ضرورة لبناء حدائق أخرى في مدن أخرى. ولم يكن للتاجر المالطي يد في صمت الفقيه. بعد سنوات وجد الفقيه نفسه وحيداً بلا ولي ولا مؤنس. اكترى دويرة في القصبة وعاش في وقار رغم ضيق ذات اليد. لكنه امتحن قبل الخاتمة امتحاناً لم

ينج منه إلا بقدرة مؤقت الآجال. كان يدخل إلى الدار كلما انتفخت يد امرأة أم احمرت عين طفل. يفتح الباب المقابل لبيته ويقوده طواشي عبر دهليز طويل لا تكاد تضيئه طاقة السقف إلى صالة ينتظره فيها المريض. يقف الطواشي في الباب يسمع ويرى كل ما يجري في الصالة. يضع الفقيه يده فوق رأس المريض ويقرأ بصوت خافت أدعية الشفاء ثم يكتب أسماء الله الحسنى داخل زلافة فيغسل السمق ويأمر المريض أن يشرب الماء المسود. وتسبب هكذا طيلة سنين في برء كل انتفاخ والتهاب، كل حمى ودوار، سوى الأمراض التي يقول المبتلي بها: تفكرنا الله. وذات يوم واجه الفقيه مرضاً غير عادي. سمع كلاماً يجري على لسان فتاة أصيبت في نفسها لا في جسمها. لم يرد أن يستمع إلى إشاراتها وأمرها أن تكثر من التعوذ والاستغفار. كان يحفظ مناجات تسحر الطيور لكنه كان يرى أن الحب في الله والكره في الله وأن التعلّق بالمخلوق يلهي عن الخالق. فتاة لم تبرح أبداً دار القائد المظلمة وتُردد من غير تكلف صدى أشعار الحب الإلهي وهو الفقيه الإخباري الحافظ لأمجاد الفرسان يمتنع عن الإنصات. «بغيت الله يشوف في حالي ويقضي مرغوبي. بغيت اللي هو مني ما يشوف غير بعيني ويسمع غير بودني. يصيب بي حاضره ويتيه بي غايبه والله يعفو عنا الاثنين. أ الفقيه بيّن فقاهتك وخلص النفس من يد الشيطان، اليوم ها هو في المدينة يضحك بغيته في الخلوة ينسك. بغيته يكون مشطون واسمي على لسانه يبرد قلبه من كيّة الملعون[67]. خذ لوحتك أ الفقيه وسجل تسبيح النجوم للرب التواب..» أطرق الفقيه في

صمت بينما الفتاة تتمادى في هذيانها والطواشي واقف، أجفانه متدلية كأنه لم ينم مدى الدهر. وأخيراً خطط الفقيه دعاء وأمرها أن تشرب الماء دفعة واحدة. وبعد العصر جلس بين يدي القائد يرشف كؤوس الشاي. فبعث على الطواشي وسأله: «أش ببنت للاك؟» - «بها المرض اللي ما عنده سمية.» فنهض القائد: «أش تقول؟» - «تتكلم يا سيدي بلا عقل.» لازم الفقيه الصمت وأمر القائد أن تشدد الحراسة على الفتاة. لكن القضية لم تقف عند هذا الحد. كانت أم الفتاة تعقد على زواجها أكبر الآمال لتنجو من سجن القائد. فجاءت لجارية كانت تعلم أن القائد لن يلبث أن يضمها إليه وأغرتها أن تهب نفسها للفقيه. نفذت الخادمة الأوامر بدقة. طرقت الفقيه وهو يقرأ قصائد ترثي سقوط طليطلة وحمص[68] فسمع الحرّاس صراخاً ملحّاً وهبّوا لحماية الحريم. قام القائد وقعد ولم يقبل أي شفاعة في «صاحب النصارى.» لاذ الفقيه بالصمت كما فعل عندما سمع صاحب نعمته يبكي في طريقه إلى مراكش. ذهب ضحية جحيم النساء. كان يعرفهن كواعب يطربن في حدائق الزهراء أو سيدات أميرات يتحايلن على إرث الخلافة لكن الفتاة العليلة كانت بدعة. كانت من ذوات القلوب الفارغة اللواتي لا يروى لهن ظمأ ولا يبرد لهن شوق. يضرمن النار في النفوس ويمتن أبكاراً. لم ينتبه الفقيه لهذه البدعة فكاد أن يموت ضحية غفلته. ثم ثار الثوار وأفلت من عقاب محقق. انكسرت شوكة القائد وحين أودع المطبق نقم عليه سوء معاملته للفقيه: «كل شيء ملك لسيدنا. الأرض ومن عليها. لم تتكايس على علم الفقيه وهو وديعة لديك كما بذرت

خيرات لم ترثها عن آبائك وأجدادك.» من العدل أن ينتقم الله على يد من يشاء. رفض الفقيه أن يروي أمجاد الكبراء فعد رفضه مكرمة من مكارم الصالحين.

ـ 38 ـ

لقد كنت يا عماه المؤمن بين المرتابين. العم جالس على السجاد يخرج الورد ويعيد بينما يتساقط المطر مبللاً أزهار المراح. يبتسم العم كعادته راضياً مطمئناً، معقوف الأنف، محمر الوجنتين، منتفخ البطن مقشر الكعب. «آ وليدي كن تحشم.» ـ «علاش أحشم؟» ـ «تقول لا لي أنا عمك؟» ـ «أقول لا لك ولغيرك.» شددت على كل لفظة وأنا أحدق في وجه العم. فأطرق وغطى وجهه بيده اليمنى. فسمعت كالنفرة الخفيفة كأنه يحبس عطسة. لم أفهم آنذاك أنه كان يكفكف دموعه. كان أبي حاضراً يبرم سيجارته في زاوية الغرفة. نطقت بجوابي الأخرق ليسمعه هو. قلت لرجل فاضل كريم صابر على جور الأيام كلمة قاسية بلا تردد تعاطفاً مع أبي وخوفاً من أن لا يستقل حبه بقلبي. قال أبي: «غداً يجي الزعيم.» فتخيلت مئات الرجال والنساء متصافّين على جنبات الطريق مصفقين مزغردين. تتوقف السيارة من كثرة الازدحام ويضطر الزعيم أن ينزل فيحمل على الأكتاف وما تلبث أساطين الزاوية الكبرى أن تردد جملاً طويلة موزونة تحكي بألفاظ رقيقة قصة الأرض والأجيال ثم تنفجر كلمات خشنة صلدة لترثي على الغزاة تنكرهم للعهود والمواثيق

وتعلقهم بتنازلات مؤقتة أمضاها أناس بلا تفويض. حلم لذيذ تبدّد في الصباح عندما رأيت الأزقة فارغة وسمعت البراح يصيح: «ابقوا في ديوركم ما تسمعوا إلا الخير. اللي خرج ما يلوم إلا رأسه.» أقفلت الدكاكين ولاذ كل فرد بمسكنه. عدت إلى البيت وبكيت طويلاً وأبي صامت يبرم سجائره. سألته عن حوادث الماضي: «علاش طلب الحفيظ[69] الإعانة من جيش النصارى؟» ـ «مولاي الحفيظ عالم يعرف ما يعمل، مطلع على أمور الوقت. ما كانت له رغبة في الملك. كان في مراكش في راحة تامة يطالع الكتب ويناقش العلماء. العلماء هم اللي قالوا له: شف الحالة اللي أصبحنا فيها، ما بقى سلطان ولا شرع. ما بقى سكوت، لا بد من الصدع بالحق والظهور. تردد طويلاً ثم اختار ما اختاره الله. قام بالعمل أحسن قيام والمغرب كله من طنجة إلى الصحراء بايعه. أنا حضرت وشفت الفرحة في كل المدن. لكن فرنسا لعنها الله كانت مصممة وإنجلترا تخلت وباعت المغرب وألمانيا تأخرت. وصل الحفيظ لفاس، ما لقى مع من يعمل، تشتت العسكر وكثرت الخيانات وفرنسا طلقت الجواسيس من كل نوع والتجار امتنعوا حتى على الزكاة. قالوا هي لله وعلماء الوقت سكتوا وكان بعض التجار يشجع الثوار ويقول في اختلاف الأمة رحمة. لما شاف الحفيظ رأسه وحده والناس راضيين بالقدر والقبائل دائرة بالمدينة، داخلة خارجة، تشري المونة والعدة، يقولوا في حق السلطان الكلام الممنوع حتى في العوام، وهو مسجون في القصر بلا كلمة ولا هيبة قال: الكلام مع الفاهمين أفضل. كتب للجنرال[70] في الشاوية: ايتوني

بقوة ولكم عندي ما تشاؤون. كل واحد حسب حسابه. لما وصلت القوة ودخلت لفاس بدأت المفاوضات ودامت ستة شهور والحفيظ يناقش حرف بحرف حتى ما بقى من أين يدخلوا ويضروا البلاد» ـ «لكن، اللي دخل بموجب يخرج بموجب.» أطرق أبي ولم يجب على سؤال صبي. بعد سنوات شنع البعض على وزير أنه يدمن على الوسكي، فعلّق أبي: «السياسة صعبة، لا بد لها من تسخين الرأس.» والعم جالس يخرج الورد ويبتسم لسماع هذا المنطق العجيب. كان أبي يعتقد أن سبب كل فاجعة كثرة المنافقين وقلة المؤمنين. كان فؤاده مفعماً بأحقاد متراكمة منذ أن رأى النهب وأرغم على اتباع سبيل المتمردين: «إنهم جهال، يعادون ما جهلوا.» لذلك ظل ينصحني: «عليك بسيدي خليل واترك ما لا يعنيك.» هذه كانت تجربته. كنت أنصت إلى صوته، صوت الأشباح، هدير الريح العاصف فوق كثبان الرمال، وأحس ببرودة تندس في فؤادي كأن الشيطان يخاطبني من وراء حجاب. «أستغفر الله وأستعطفك يا أبتِ!»

ـ 39 ـ

انقطع حبل المودة بيني وبين أبي مدة قبل أن يموت واختفت مناجاتنا وراء غيوم الماضي. رأيته قبل موعدنا الأخير فانطلق يروي قصة مطولة لم ألتقط منها سوى شذرات. كان بطل القصة مدرس المدينة الذي خاض حملة الانتخابات البلدية تحت لون[71] وتقدم للنيابة تحت لون آخر. «كانت الحملة الأولى مثال

الشجاعة والصمود. خطب قدام البوليس والإدارة وقال كل شيء بأدب وصواب. بلا سبّ ولا شتم. قال للسكان: اختاروا من يقرأ ويكتب ويحمر وجه سكان المدينة. كل الحاضرين فهموا المعنى ومرّت الانتخابات على أحسن حال. تفاهم مع الباشا وخدم المصلحة. لكن الباشا جاءته أوامر وخاف على المنصب وكثرت فيه الإشاعات. وقف البوليس على باب المركز وعلى رأس الدرب الذي يسكنه المرشح. ثم كان أخوه يمشي في الزنقة، ما عليه ما به، قبضوا عليه وقالوا: **تتعنجر**[72]، تضحك على المخزن. ساقوه إلى السجن وبهدلوه قدام السكان. كائن من قال إن الباشا بعث له في السر من أخبره أن البوليس عازم على تفتيش الدار ولا بد يلقى فيها مناشير وسلاح. لما شاف الناس هذه الاحتياطات قاطعوه. ما بقى من يرد عليه السلام كأنه مجهول في البلد. مشى الاحترام. مشى التصفيق. مشى الابتسام كأنه ما كان. سؤال واحد يجري في المدينة: متى يجروه للحبس؟ لو دخلوه للحبس ومحنوه من كان يبكي عليه؟ أخذ السيارة بالليل وغاب صبيحة الغد. لما رجع بعد العصر تغيّر كل شيء بقدرة قادر. تحوّل العدو إلى صديق والمخزني اللي كان يقول للناس: إياكم وإياكم، رجع يدق على الديور ويصيح: ردوا بالكم، اختاروا السلامة والعافية واخرجوا من باب واسع. انسحب البوليس من باب الدرب وفي الغد تغيّر الاسم على باب المركز ورجعت المياه إلى مجاريها. الناس ترد السلام والبقالة رجعوا مؤدبين وهدأت المدينة كأن كل شيء ما كان، سبحان مبدل الأحوال ومغيِّر القلوب!» استمعت إلى أبي، عبر مسافات

متباعدة وأزمان متعاقبة، يعدد مساوئ البشر المسطرة في مؤلفات أصحاب العلم والحنكة. مثلك الأعلى، يا أبت، هو عمرو[73]. عندما كنت أقرأ عليك رسالته إلى الخليفة كنت تلزم الصمت ولا تجيب على تساؤلاتي كما فعل قبلك مئات الفقهاء. رأيت السواح الإنجليز يتسلقون عقبة فنار الإسكندرية والعرق يتصبّب من جبينهم والدليل ينعته بهازم ذي القرنين ورأيت الحجاج المغاربة يدورون في أطلال أول مسجد بناه المسلمون في أرض مصر والحزن بادٍ على وجوههم. كل منا ينصت في قرارة قلبه إلى درس عمرو بلا مراجعة ولا مؤاخذة. إني أرفرف، يا أبت، نحو بلد يحلو فيه الوفاء ويحق الرفض، شاباً بين الشبان، قبل أن تهزمني الحياة. اليوم أنظر إلى المدينة البيضاء الملتفّة حول زواياها وأضرحتها وأسواقها وحماماتها وأدرك أنها ليست موطن المأساة. عمرو هو الذي أخمد الشعلة، كلما قام بيننا رجل في جبة بيضاء يصدع بالحق تنهدنا: مسكين، بهلول، شريف، بركة، مجذوب، سفيه، هراف وخراف. المدينة البيضاء مآسيها خطرات صمت لا نذكرها، لا نتغنى بها، والمانع عطف الآباء على الأبناء وصداقة الأبناء للآباء.

ـ 40 ـ

هذا ما استخلصت من تجارب أبي. لم تتح لي الفرصة لأحقق معه وأستكمل معلوماتي حول تقلباته في الحياة. لم أسترجع عهد التعاطف معه. كل القرائن تدل على أنه لم يدّخر

نصائح ليوم بلوغي الرشد.

لكن الموت باغتني. لذلك سأعتقد في قرارة قلبي أن الزمن خانني وأني أصبحت يتيماً قبل الأوان.

ـ 41 ـ

. . . «مارية إنك تدرسين مدينة اليتيم. هذا هو اسمها منذ القدم، ترجم من لغة إلى لغة، من الليبية القديمة إلى الفينيقية إلى اليونانية إلى الرومانية إلى البونيقية الجديدة إلى العربية» ـ «الاسم لا ينفع والماضي لا يفيد، وكذلك ما يقوله الريح للأسوار والأشباح في الصابة وذكرى الفقيه الرافعي. كل هذا لا يفيدني في عملي. هذه مدينة بلا اسم توجد على مصب نهر يجري من الأطلس إلى الأطلسي. وما أكثر عدد أسماء هذه المدينة على ساحل المغرب من أعمدة هيرقل إلى خليج غينيا». . .

ـ 42 ـ

تقرر مارية:

الحياة في الصديقية مملة. لا توجد جمعية ثقافية ولا مكتبة عمومية ولا دار جماعة. يعرض من حين إلى حين فيلم في هري فسيح يجهز بمقاعد مرتجلة. لذا يكثر التنقّل بين الصديقية والبيضاء: النساء لاقتناء الأزياء والشبان للتفسح. لا تنتفع المدينة حتى من موقعها على الساحل. ضمّ الشاطئ إلى الجماعة القروية

فقرّرت أن تشيد دوراً للاصطياف تؤجر لموظفي المصالح العمومية. وحتى لا يضيق المصطافون بالسكان المحليين منعت الجماعة أي نقل عمومي بين البلدة والشاطئ. الحياة العامة منعدمة لأن الإدارة تستقل بكل الأنشطة، لا توجد أية هيئة وسيطة بين الإدارة والسكان، لا الدرب ولا **الحومة** ولا العائلة تكوّن وحدة حقيقية. الفردية هي السمة الغالبة على مجتمع الصديقية، فردية لا يحدّدها تكتل من أي نوع. قطاع وحيد يعيش في شبه اطمئنان. يتكوّن من الحرفيين والتجار الأميين. لا يفكرون في الهجرة. يجتمعون في ثلاث زوايا ويؤلفون مجموعة متجانسة. يتبادلون الثقة فيما بينهم ويحذرون الشبان والنساء والإدارة والنازحين من البادية. هذه المجموعة تحافظ وحدها على ما تبقى من النظام الحضري الإسلامي التقليدي، لكنها لا تملك أي نفوذ ولا إشعاع. يفضل السكان المكوث في بيوتهم، يهتمون بالدراسة والأخبار الخارجية. قلّ ما تجد بيتاً بلا مذياع أو تلفاز، مؤشر الاطلاع على أحداث العالم مرتفع جداً، إلا أن المعلومات المستقاة لا تؤثر في حياة السكان بل يستبعدون هذا التأثير. المثل الأعلى هو الموظف، صاحب الكلمة الذي يأمر ويطاع. الطفل يريد أن يكون موظفاً والأب يهيّئ ابنه للتوظيف والفتاة تتمنى أن تتزوج بموظف ينتقل بعد حين إلى مدينة أكبر. تنبئ نظرة أولية أن فروقاً عميقة تفصل بين السكان في الدخل ونمط العيش وحتى في اللهجة، إلا أن السكان أنفسهم يميزون فقط بين المعروف والمجهول والمجهول هو النازح مؤخراً من البادية. المعروفون لا يتعدون ثلاث مائة. لا يمكن الاتصال إلا

بمن هو معروف. أما المجهول، فلان ابن فلان ابن فلان، الشخص بلا اسم ولا كنية ولا حيثية ولا وظيف ولا إرث، فلا سبيل إلى التعرّف عليه. تستفيد الصديقية أكثر مما تؤدي لميزانية الدولة وتجلب من البادية أكثر مما تصدر إليها، لكن في واقع الأمر تعطي للمجتمع العام أكثر مما تستخلص منه، إذ تمد المدن الكبرى بأحسن ما لديها من أفراد، إنها بمثابة مدرسة اجتماعية أولية، لا تتقدم إلا بمقدار ما يتقدم المجتمع المغربي. يقول أحد الموظفين: «من يهتم بحالة المدينة؟ التجار لا تهمهم إلا مصالحهم، تزيين الدروب التي يسكنون فيها، تجزئة أراضي البناء، توسيع شبكة الكهرباء والماء، السلف، تسويق المنتجات الزراعية. وجدوا زعيماً فيه إقدام وجرأة. إذا كانت لهم مصلحة دفعوه لمواجهة السلطة، إذا قضوا حاجتهم قالوا: نحن لم نطالب بشي. وجدوا فيه انقياداً لأنه ليس من السكان الأقدمين ولأنه طموح. كان مدرساً يتقاضى مرتباً ضئيلاً ويملك الآن ثلاث دور وسيارة فخمة. أما باقي السكان فإنهم يفضلونه على غيره: لو كان منقاداً تماماً للإدارة ما الفائدة من وجوده؟ لو كان معارضاً لأصبح غير نافع.» يقول رئيس مصلحة الضرائب: «مداخيل المدينة؟ تعيش على الصدقة، هذه هي الحقيقة. توقف الصيد وبارت صناعة الحنّة وشاخت أشجار **الولجة**. المدخول الحقيقي يأتي من الموظفين المغتربين الذين يبعثون على كل رأس شهر دريهمات تتقوت بها عائلاتهم. الطلبة أنفسهم يقتصدون من منحهم ليعينوا آباءهم وأمهاتهم. كل هذه الملفات، قناطير الكاغط والغبار، تتضمن مقادير مالية لا تساوي ثمن الورق

وجهد الموظفين. على من نضرب الضريبة؟» ـ «. . .» ـ «نعم، أغلب السكان، النساء بالخصوص، يعيشون من المعاشات، أو سمّيها صدقات. ينتظرون آخر الشهر والأعياد وعطلة الصيف حيث يعود بعض المغتربين ويسكنون في الدور وكأنها فنادق، يتكلفون بالإنفاق مقابل السكنى» ـ «. . .» ـ «فعلاً الأجدى أن تذهبي إلى مكتب البريد وتسألي عن الحوالات التي ترسل من العواصم.» ـ «. . .» ـ «يمكن أن ترجعي وتنغمسي في هذا الغبار، بشرط أن تأخذي الملفات وتردّيها بيدك إلى الرفوف بعد الاستعمال.» الدخل في الصديقية مرتبط بالعلاقات العائلية أو بالثقافة، لا بالعمل الراهن. يوجد المياوم، طالب معاشه، الذي يستخدم في البناء، في التعاونية، في معمل النسيج الذي يفتح أبوابه من حين إلى حين. لكن هذا منسي في المدينة. الساكن الحقيقي هو الذي لا يعرف معنى للادخار لأنه هو نفسه مدخر، لأنه يعتقد عن تجربة أن الاستهلاك أصل الإنتاج. تقول امرأة العم: «أنا وحدانية في الدار لكني ما سخيت. عرضوا عليّ الأولاد: أجي معنا واستريحي. لكن إلى خليت الدار شوية تردم. ما بقى كاري، ناس الخلا[74] ما يخلصوا ما يحافظوا. الدار العالية بقت مسدودة سنين حتى جاء بوليسي من تطوان وما وجدنا من يجيرها. الجيارة اللي هنا ما عندهم سلاليم طويلة ولا أحبال صحيحة. شوفي الزمان، هذا قرن وجدوا من يبنيها واليوم ما لقينا من يجيرها. العريصة مكرية لبنت من العائلة. يدها مكفوفة ما بغت تزيد في الكرا. لو ما كنت أنا هنا وأصلحت البيت الوسطاني كانت الدار كلها رابت[75]. شوفي الحائط كيف

يندى. سكن في الدار العالية جدرمي، سبقه بوليسي، سبقه قاضي، سبقه مول البوسطة، سبقه معلم. هذا بقى فيها أكثر من عشر سنين حتى انتقل إلى البيضاء. أصله من الريف، أزرق العيون، خفيف بحال الطير. أيام الحرب كانت خاوية، بالحق الكاري كان يخلص، هو المكناسي الجواهري. مشى البيضاء حين دخل المريكان[76]. خلى امرأته وبناته هنا. كتب من بعد لروزة وسوسانة وبقت تمار ابنته الكبيرة حتى تزوّجت. سدت الدار وبقى المكناسي يخلص الكرا. رجعت تمار للدرب حين أسلمت وتزوّجت. سكنت في القاع دار الشيخ. تزوّجت مع المواجني، بالحق الزواج ما صدق زواج. دخل المواجني الوسواس وظنّ أنها وكلته باش تفرقه على أولاده. وقع له ما وقع مع امرأته الأولى ولكن ما قدر على الطلاق. كان يخاف من الثانية بحال الطفل مع أمه. تنهره، تضربه توبخه إلى تأخر أو قال كلام ما يعجب.. تنغص ومرض ومات وبقت هي وحدها بحال المجنونة حتى خوت البلاد. البيت اللي في السطوان سكن فيه سيدي عباس وبعده سيدي عبد الواحد وبعده سيدي ادريس خلاه عامر بالكتب والأوراق. سيدي ادريس غاب علينا غيبة. نسمع عليه مرة مرة. بغينا نشوفوه فرحان بامرأته وأولاده بحال الآخرين، يزرنا كل صيف ويقضي معنا أويمات ويعرض علينا في الأعياد والأفراح. رجع وما جاء عندنا، تزوج وما عرض علينا، مات أبوه وما حضر للدفن. جاء بعد الوقت، بقى نصف نهار، مشى وغبر ثاني. الله يرضى عليه ويعطيه ما نوى في خاطره. هذا ما ندعي له به الصباح والعشية. الأولاد كلهم

فارقوا البلاد. ما قرأوا غير باش يخرجو. نبغيهم يرجعوا مرة مرة، هذا هو ما نبغي والمكتوب مكتوب.» قالت الممرضة في غرفة امرأة العم: «قريت عامين في مدرسة الممرضات في البيضاء، خرجت مساعدة بلا باك[77]. في الأول الخدمة صعبة. سكنت هنا مع العائلة، أربع نفوس، خلصت كل شيء، ولّيت معروفة، الفرملية، كل واحد يسلم علي ويكلمني في الطريق ولا واحد يفكر في. وبدأت الأيام تجري. مشيت مرة للبيضاء وتلاقيت في الزنقة مع صاحبتي. قالت: الى بقيت في الصديقية عمرك ما تتزوجي. اللي شاف عائلتك يهرب. طلبت الانتقال. ما كانت فارغة غير البيضاء. صبرت حتى خوى محل. لما انتقلت غضبت أمي. بغت الحوائج اللي شريت. قالت: والى رجعتِ أو جاء الضياف كيف نعمل؟ خليت لها كل شيء وحلفت لها يجيها كل شهر ثلث الأجرة. وما رضت. بكت وندبت وعيّبت. ولكن الله سهل. تلاقيت بولد الرضى. اتفقنا على الزواج بعد عامين. بديت الجهاز. قرب الوقت. تكلمت مع أمي. قالت: لا بد نكتب في الكاعظ ثلث الأجرة. ما قدرت. تأخرت الكتبة وهو دخله الشك. فهمت أمي الواقع. قالت. عرضي عليه يتغدى. جا ويدأته هي بالكلام. قالت: أنا تمحنت على هذه البنت حتى كبرت وقرأت واليوم باغية تروح بحالها وتخليني وحدي، واش هذا حق؟ قال: لا. قالت: إما نسكن كلنا في دار واحدة، كيف ما عملوا أولاد الناس وإما تكتب لي ثلث الأجرة. قال: حشومة الكتبة. أنا هو ولدك، اللي طلبته أنا ضامنه لك. قالت: لا بد من الكتبة. الكلام تقوله اليوم

وغداً إلى ولدت ثلاثة وأربعة تبدأ تتأخر ومن بعد تنقص وفي الآخر تقول: الله غالب وتقطع. المعقول هو الكتبة في الكاعظ. الشرع ما فيه حشومة. هو سكت وأنا سكت حتى قربنا من الفراق. كثر القيل والقال، كل واحد أعطى رأيه. هذا بغى يكتب عليه نصف مليون وهذا بغاه يشهد على رأسه بدين ثقيل يخلصه شهرية. والأمور معلقة حتى اليوم.»

فسّرت امرأة العم فيما بعد: «وجدوه فايت فيه الزواج وعنده بنت قايم بها وأجرته ضعيفة، أقل من أجرة الممرضة، قالت الأم: ها اللي خفنا منه. لو ما كان كلامي، اللي ما عجب، كان أخذ الفلوس وكتّف البنت بلا رحمة. كان يقول: عليه الفراش ونصف مصروف العرس. حين شاف وسمع الأم رجع في كلامه. الأيام غدّارة والوقت ما هو وقت. كانت الناس معروفة وكانت الكلمة كلمة، اليوم الولد يغرب والبنت تشرق والعائلة ما تعرف الأصل من المفصل. والندامة ما تنفع. ها بنت أخرى معلمة تعارفت مع خدام معها في المدرسة، كذب عليها وقال: ما بقى لي غير عام وأكمل قراية الحقوق وهو كان يا الله بدا. خدمت عليه وهو يأكل ويشرب ويقرأ. والعائلة تسوّل: من أين هو والبنت تقول: وقتكم فات، أنا قائمة برأسي. عاشوا على هذا الحال ثلاث سنين ومن بعد قال لها: القراية هنا ما تنفع، لازم أمشي لفرنسا. قال الأب: لا بأس ولكن تكاتبوا ويبقى في فرنسا حتى يعيى. بدا الولد يتنصّل، اليوم غداً اليوم غداً، حتى جاء ببراءة وقال: هذا صاحبي وصيته على بيت. كتب لي يقول: ضاق الوقت والبيت في خطر. ما عرفت تقدم ولا تأخر. ظهرت

المعنى وقال الناس: ها كلامنا. وما زالت مستنياه إلى اليوم. تقول إنه يكتب لها والله هو العالم. الحاصل لا بد من الضمانة والرجال ما فيهم ثقة.»

ـ 43 ـ

... «لم أجد في الصديقية مدينة متميزة. إنما وجدت تجمعاً منقسماً على نفسه، وظيفته نشر العقلية الاقتنائية التي نعتبرها لب العقلية العصرية» ـ «هناك أشياء لا يراها الغريب» ـ «تعني السور الذي تتكلم عنه دائماً، الذي يفصل المدينة البيضاء عن المدينة الخضراء. الأولى هجرها أهلها والثانية يبست أشجارها وعاد السور أثراً يصوره السواح. وجدت سوراً آخر يؤثر في حياة السكان يفصل بين المعروف والمجهول، لكنه خفي لا تراه العين. منعني من أن أتصل بأغلبية السكان الذين أصبحوا أشباحاً ترمز إليها أرقام في سجلات مصلحة الضرائب أو دار الخيرية» ـ «...» ـ «لا لغز في المدينة. اللغز في قلبك[78]، يا ادريس، ولست أنت موضوع اهتمامي الآن»...

ـ 44 ـ

تبدو المدينة هادئة الأعصاب بطيئة الحركة في بداية موسم زراعي يختلف عن المواسم العادية. تدل القرائن على أن السنة من السنوات التي تتمكن السحب المحمّلة بالأمطار أن تقترب من

شواطئنا مبكراً وتسقينا قبل أن يقوم حاجز يجعلها تمر مباشرة من قلب المحيط إلى غرب أوروبا، فلا تزورنا من جديد إلاّ في أواخر الربيع حيث لا تمكث القطرات إلا قليلاً فوق الأرض المحروقة وتتبخر. لكن في هذا اليوم من أواسط دجنبر غسلت المدينة غسلة حقيقية. سقط المطر بانتظام طوال الليل، بلا رعد ولا برق ولا نقنقة على السطوح، بل بهدهدة تجلب النوم إلى الأجفان. وفي الصباح انكشفت السماء بيضاء ناصعة كأن غطاء شفافاً نشر فوق المدينة تتخلله لمسات مدادية شاحبة. تلألأت الطرق والأرصفة وانعكست المباني في ضايات من الماء المشوب بصفرة الغبار.

«منذ الصغر وأنا أتعجب من اسم هذا الزقاق، دوهو، النطق به صعب.

ـ ألا يكون اسماً أنامياً؟

ـ قد يكون اسم أحد المتعاونين مع فرنسا في الهند الصينية. دوهو، اسم مخيف والله!»

قصدت بدون وعي الأزقة المؤدية للمقهى الذي أختلف إليه والمطعم الذي ألجأ إليه منذ أن هاجرتني رفيقتي. تدير المطعم فرنسية تفتخر بطهوها «البورجوازي» وبزبنائها من رجال الأعمال الذين يطيلون الجلوس على مائدة الغداء لاستطلاع الأخبار وعقد الصفقات وحسم المزايدات وربط الشركات. أحب المطعم لأني أستلذ أكله الشهي ولأني أفحص الوجوه وأستمع إلى المذاكرات وأختزل الوقت بين الظهر والعصر. (في الصباح انشراح وفي

الليل لذة. أما الظهيرة، فدقائق تطول وتطول كأيام الحياة)[79].

«اليوم يوم ممطر وبارد وأنت آتية من مدينة الغربي[80] حيث لا توجد تدفئة.. لا تبالي بوزنك.

ـ هل نسيت طواجن امرأة العم؟ لكني لا أهتمّ عادة بوزني وتعوّدت على هضم كل أنواع الأكل.

ـ إذن لنفعل مثل جيراننا وكلاء البنوك وشركات الضمان. انظري إلى العرق يتصبّب من وجوههم الممتقعة. أنا أحب خليع الأوز والشرائح بالجبنة والحلوة المسقية بالشكلات الساخن. ما رأيك؟

ـ لا أمانع.»

جاء النادل. سردتُ عليه بدون تردّد الأكلة. خطط على ورق ثم شكر واختفى.

قالت مارية: «إني مقيدة بالأسئلة. إذا نظرت إلى الصديقية كما تراها وجب علي أن أسجل أني أعتقد أنك ضمير المدينة.

ـ أنا لا أدعي هذا.

ـ وماذا تدّعي؟»

تقدم النادل ووضع فوق الخوان طبق الخبز وصحن الزبدة وقارورة المرقدات وزجاجات المشروبات.

أجبت: «انتهى عهد الطموح. ما زلت أعتقد أن وراء الظاهر باطناً، لكني أصبحت أشك أن يتحكم هذا في ذلك.

ـ لماذا لا تتكلم على الظاهر فقط؟

ـ لأني لا أستطيع.

ـ كيف؟

ـ الوصف ميدان العلم، ميدانك أنت. لا أريد أن أزاحم أصحاب الصنعة.»

غرقت مارية في تأمل طويل وهي تستلذ الشريحة الرقيقة الطرية الدسمة. حدقتُ فيها تأكل بتؤدة وأناقة، تتأمل وتستلذ، تمضغ بانتظام وجدية. حدقت في وجهها الوضاء وشعرها الملفوف في قبعة صوفية وانتظرت حكمها. مضغت مارية طويلاً وبلعت اللقمة ببطء كبير كما لو كانت تمثل في التلفزة ضمن برنامج طبي يشرح أخطار الأكل السريع على الأسنان وباقي الجهاز الهضمي.

قالت: «إني أميل إلى المؤلفات التي تتكلم عن أحداث واقعية من خلال أبطال خياليين.

ـ كل المؤلفين يفعلون ذلك.

ـ خذ مثالاً. كم صدر من كتب حول مصرع الرئيس كنيدي! من الناس من قام بتحريات بوليسية ووضع كتاباً في شكل تقرير أو مرافعة. ومنهم من ألّف قصة حول اغتيال رئيس لا يحمل اسم كنيدي، قتله شخص لا يسمى أوسوالد في مدينة لا تسمى دالاس. لكن البحث عن أسباب الاغتيال يخضع تماماً لقوانين التحريات البوليسية. ما هو الفرق بين هذين النوعين من التأليف؟ هل الأول وصف والثاني خيال؟ ينحصر الخيال إذن في تغيير أسماء الأشخاص والمواضع فقط؟ الفرق حسب رأيي أن مؤلف

النوع الثاني مقتنع بحقيقة يعجز عن البرهنة عليها. يدعي أنه يتخيّل في حين أنه يصف الواقع إلى حيث وقف البوليس أو المؤرخ أو الصحفي، ثم يتجاوز هؤلاء جميعاً لكن على نفس الخط. لو اكتشفتْ في المستقبل حجة مادية لاضطر البوليس أن يصل إلى النتيجة المضمنة في الكتاب. إني لا أفهم ماذا تعني حينما تفرق بين الوصف والخيال، إلا إذا كنت تعني خيال **ألف ليلة وليلة**.

- إني أقصد ما يميّز الكتّاب الموضوعيين وغيرهم.

- أعتقد أن كل الكتّاب، الذين يستحقون هذا الاسم، موضوعيون والكتّاب الذين يبدون منفصلين عن مجتمعهم ينجحون عندما يصفون بدقة مجتمعاً واقعياً، في مكان آخر أو زمن سابق. يظنّ القارئ أن المجتمع الموصوف خيالي لأنه مغاير لما يعرف، لكن، بالنسبة للمؤلف، الماضي حاضر والبعيد قريب. تريد أن تتخيل لأنك تشعر أن ما تقوله غير واقعي وأن الماضي منفصل عنك. إنك واعٍ بهذا الانفصال. وذلك الوعي، حسب ما أتصور، هو العقبة الّتي لم تتجاوزها بعد. لو كان الماضي ماثلاً أمامك، حاضراً لديك، لما فرّقت بين الوصف والخيال ولما أحجمت إزاء وصف في متناولك وانطلقت وراء خيال لا يمكن أن تدركه في حالتك النفسية الراهنة.»[81]

نطقت مارية بحكمها بصوت هادئ، ونبرة متزنة. لم يبق لي سوى أن أغيّر موضوع الكلام:

« - لماذا تريدين الذهاب إلى مراكش؟

ـ هذه حكاية ثانية. تلاقيت في سان فرانسيسكو بامرأة مغربية متزوجة بأمريكي عرفته حينما كان مستشار الحكومة المغربية في شؤون استغلال الثروات البحرية. وقالت لي إن أمها تعيش وحيدة في الأطلس وإنها قلقة على مستقبلها. وطلبت مني أن أبحث عن أحوالها.

ـ أين تسكن بالضبط؟

ـ قالت لي: اذهبي إلى ورجان[82] واسألي صاحب الفندق هناك.

ـ ورجان مكان جميل مليء بالزوار في هذا الوقت.

ـ تقصد أن كل الغرف ستكون محجوزة؟

ـ من الناس من يحجز سنة بعد سنة.

ـ ومراكش؟

ـ حتى مراكش.. كان عليك أن تفاتحيني في الموضوع عند وصولك. السفر الآن إلى مراكش مجرد مخاطرة.

ـ المخاطرات لا تخيفني.»

وضع النادل إزاء كل واحد منا كأساً فائراً من القهوة. سألت: «هل السفر إلى مراكش جزء من مهمتك أم تريدين فقط أن تري الجنوب؟» سكتت مارية هنيهة ثم أجابت: «هل تعني أنك تنوي مرافقتي؟

ـ إذا رضيت بالسفر في سيارتي المتداعية.

ـ إني مرتاحة لقرارك. لكن لا بد لي أن أمرّ على مراكش.

لقد وعدت المرأة في سان فرانسيسكو.

ـ طيب. سنذهب إلى مراكش.

ـ وكيف تحل مشكلة الفندق؟

ـ أمامنا أسبوع لنتصرف. إذا لم نجد غرفة ننزل ضيفين على صديق لي يسكن قرب سيدي عثمان. من ثمة يمكن أن تذهبي إلى ورجان في يوم واحد وترجعي.

ـ ترى الآن أني كنت على صواب حين راسلتك من بعيد!» أنظر إلى وجه مارية الوضاء، إلى ابتسامتها العريضة وعينيها البراقتين وأتعجّب من رباطة جأشها وقوة إرادتها وعمق أحكامها. أظلم الجو بغتة خارج المطعم ونحن على أهبة مغادرته فانتبهنا إلى أن القاعة كانت مضاءة بالكهرباء. غطت السماء سحابة مثقلة بالأمطار وحجبت عن المدينة نور الشمس الشاحب. سحابة في طريقها من جزر الآصور إلى مواطن آيت سخمان[83]. قدرنا المكتوب في عين الأعاصير!

ودّعت مارية على عتبة دار أمريكا.

* * *

3
مراكش

ـ 45 ـ

تغادر الدار البيضاء قاصداً مراكش. تحاور أول الأمر رفيقتك أو تنصت إلى أنغام مذياع أو مسجلة ولا تنتبه إلى المشاهد التي تمرّ بها. بعد ساعة من الزمن تكون قد قطعت مائة كيلومتر تقريباً فتمل الحوار أو الطرب وتفتح عينيك على ما حولك. إذا كان الفصل شتاء تلحظ أشباحاً متناثرة على الحقول وأكواخاً ونوايل وخيلاً وأبقاراً وأشجاراً متصافة. بعد ثلاثين كيلومتراً تختفي الأشباح والأشجار والحشائش ويتغير لون التربة. ثم تجتاز قنطرة أم الربيع فتدخل قطراً آخر. من حين إلى حين يعترض بصرك سوار من الكافور المائل اليابس كالطفل النحيف الذي يتساءل أبواه كل يوم: هل يعيش غداً؟ إذا كنت شاباً عاطفياً تقرض الشعر وتسافر كثيراً خارج المغرب ستقول لرفيقتك: «انظري إلى الألوان الناصعة، إلى السماء الصافية العميقة وسط الخريف. استنشقي الهواء اللطيف، هواء الإيمان والحرية.. إن المغرب جميل حقاً.» وإذا كنت غير ذلك الشاب، تسافر وحيداً، لا

يلهيك طرب أو حديث، ستلاحظ تلون التربة وتتعجب: «أبعد مائة كيلومتر أرض موات؟» تطول الطريق وتطول بين المرحلة والمرحلة، تخترق ابن جرير، تلاحظ البنايات الجديدة ـ الحوانيت والمسجد والسوق ـ وتقول، «منظر من مناظر أفلام الوسترن!» تقولها وقلبك مفعم بالمرارة. تستشعر الخيبة، تشرف على اليأس إذا تجاوزت الأربعين وكنت وحيداً في السيارة، لا ترافقك فتاة أنيقة ولا تفكر في مضاربة أو قمار[84]. وإلا ستحاول بدون شك أن تضرب رقماً قياسياً وأن تقطع المسافة في أقل من ساعتين ونصف. تغمض عينيك في البيضاء وأنت تضغط على المسرع وتفتحهما تحت ظل الكتبية أو في عالم الآخرة. ها أنذا بجانب امرأة جذابة في طريقي إلى مراكش لقضاء عطلة، لكني لست شاعراً أو سائحاً. إني مستيقظ واعٍ بما أشاهد على جنبي الطريق. أسوق ببطء غارقاً في الصمتَ حتى اقتربنا من الصخور[85].

«تتساءلين بدون شك كيف يعيش الناس والحيوان، أي ماء يشربون وأي وقاء ينشدون؟ يقال إن هذه الأرض كانت مكسوة في زمن غير بعيد بأشجار باسقة متشابكة. يقال إن المياه الجوفية غزيرة وقريبة من السطح. يقال إن عملية تشجير بسيطة تضاعف معدل الأمطار وتحول الأرض إلى زرابي ملونة في كل فصل من فصول السنة. يقال ويقال ولا ندري هل هي أقوال عالم أم تصورات شاعر حالم؟

ـ إني شاهدة على صدق هذا القول. عشت في أرض حرقتها الشمس منذ قرون حتى جيء بالماء على بعد ثلاث مائة ميل

فتغيّر كل شيء: التربة والزهير. وحتى اليوم تجاوز المنطقة المسقية تلق الدوم والصبرة[86].

ـ كنت في عنفوان الشباب لا أرى فارقاً بين الأرض الخضراء والأرض الجرداء. أنتقل بينهما وكأني في عالم واحد. اليوم إذا رأيت شجرة تقطع أتألم كما لو شاهدت روحاً تزهق.

ـ وما سبب هذا التطور؟

ـ لعله تطور طبيعي أو لعله من تأثير حمدون.

ـ الشخص الذي قلت عنه إنه يسكن قرب مراكش؟

ـ نعم. هو الذي حجز الغرفة رغم الصعوبات. سنتوقف عنده ويكون مسروراً جداً لو قبلت أن تقضي عنده الليلة.

ـ أقبل الدعوة للمرة المقبلة.»

ـ 46 ـ

«جئت أول مرة إلى مراكش رفقة أبي لألتحق بالمدرسة الثانوية. عند وصولنا لم تكن المدرسة قد فتحت أبوابها بعد. فمكثنا ليلتين في دار توجد بدرب بريمة[87] وهناك تلاقيت مع حمدون. جاء هو من سوس ليدخل أيضاً إلى المدرسة وعلمت آنذاك أن صلة رحم تربط بيننا وأن جده قد شارك في حملة ابن دحان ضد مربيه ربه[88] ثم لما سُرّح من الخدمة تزوّج واستقرّ في هوارة. لم يمكث حمدون طويلاً في المدرسة. كان ذكياً، مطلعاً على كثير من الأمور، لكنه كان مسنّاً. لم يتحمّل حياة

الداخلية. رجع إلى سوس وتوظّف في مصلحة البريد. وبعد سنوات قليلة انتقل إلى مكتب جليز[89]. جاء بعدها إلى الصديقية مراراً في فصل الصيف وجدّد صلة الرحم مع أفراد العائلة. أثناء السنة الأخيرة التي قضيتها في مراكش كنت أطلع إلى جليز كل جمعة لأحجز تذكرة في إحدى قاعات السينما لعرض يوم الأحد وأمرّ عليه لأحييه فيقول لي: «اسبقني إلى مقهى التجار.» أذهب وأجلس في المقهى وبعد قليل يقترب حمدون ويجلس بجانبي معروفاً محبوباً لدى النذال والزبائن. أراه يخاطب الجنود الأمريكان[90] من بعيد ويضرب لهم المواعيد. كان واضحاً أنه معهم في بيع وشراء. ويجري بيننا نقاش:

«في هذا الزمن القراية ما تنفع. تقرأ وتتعذب. تسهر الليالي وتحفّي عقلك ومن بعد؟ موظف؟ ما كاينه ترقية. محامي؟ من يعاونك في البداية؟ طبيب؟ من يعطيك منحة في الأول ومن يجهزك في الآخر. لا بد من رأس مال والمال ما يجي في هذا البلد غير من الأرض. شفنا الناس في آيت ملول[91]. لا بد من قطعة أرض. وإلا بقيت ضحية. اسمع لي. أنت صغير وعندك **الولهة**[92] تابع، لكن ما تطول. بكّر وادخل المعمعة.

ـ كيف؟

ـ شهادة الثانوي وسر لمكناس[93].

ـ ها أنت قلت جدودنا[94] ما عرفو شي.

ـ كانوا جاهلين. ذاك وقت وهذا وقت. سر لمكناس وحل عينيك، النعسان يتعلم.»

رأيته مرة أخرى بعد سنين. كنت أرافق أبي في مهمة عائلية إلى سوس وتوقفنا بمراكش فأضافنا حمدون. أثناء العشاء طرح على أبي سؤالاً حول الفرائض والأسهم إذ كان لأبي إلمام بهذه الصناعة. ضربا الأرباع في الأسداس في الأثمان أولاً شفوياً ثم بالقلم والقرطاس وحاولا التحاكم إليّ بدون فائدة وأخيراً اتفقا على أن السهم المتنازع فيه يقدر بواحد من ثلاث وتسعين سهماً. لم أفهم معنى هذا اللغز إلا بعد سنوات وعلمت أن السهم حق امرأة في ميراث أصل. كانت المرأة خادماً لأحد الجنرالات الفرنسيين، تبعته إلى فرنسا حين أحيل على التقاعد وسكنت بلدة في بريطانيا ثم عادت إلى مراكش عند موت الجنرال. لا أدري كيف اتصل بها حمدون كما لا أعرف كيف اطلع على قضية الإرث. هل استغل مركزه في البريد لفض بعض المراسلات؟ هل تعرّف على شخص أخبره بالحادثة أثناء تجواله في أسواق المنطقة؟ على كل حال نقّب حتى عثر على المرأة واتفق معها على أنه يصرف عليها مدى حياتها مقابل تنازلها له عن سهمها. كانت الأرض تحت تصرّف أحد المعمرين، شريك باشا مراكش، اكتراها من بعض أصحابها ثم عند أول تجديد لعقد الكراء انتهز أميتهم. فوقعوا على عقد بيع وهم لا يشعرون[95]. لم ينتبهوا للغش إلا عندما جاءوا كالعادة أثناء الحصاد ليتقاضوا ثمن الكراء فطردوا من العزيب شر طرد. وبقيت الحال هكذا حتى قامت حوادث وادي زم[96] فخاف المعمر على حياته وهرب تاركاً كل شيء. حينئذ ظهر عدد كثير من طلاب الحق واتضح أن المعمر لم يكن أول متطاول. جاء رجال القبيلة

واحتلوا الأرض مدعين أن لهم رسوماً تثبت أنها حبست على الزاوية بشرط ألا يحرثها أحد خارج القبيلة. ثم دخل في المعمعة ورثة شيخ الزاوية وورثة الباشا ومحام تصدَّر للدفاع عن مصالح المعمر بعد أن اتفق معه مناصفة. كان واضحاً منذ البداية أن قضية متشعبة مثل هذه لا تفصل في المحكمة وإنما تحل حسب ما ترتئيه الدولة. وهذا ما حصل بالفعل. والغريب أن حمدون الذي كان في الصف الخامس بعد أعضاء القبيلة وورثة الشيخ وورثة الباشا والمعمر سبق الجميع وحاز القطعة التي اختارها منذ البداية. لم أدرِ إلى حد الساعة كيف توصَّل إلى هذه النتيجة مع أن عدداً كبيراً من المطالبين خرجوا بدون طائل. لا أدري ماذا فعل ليحقّق حلمه الطويل لكني أعرف ماذا صنع بقطعة الأرض وستعرفينه أيضاً بعد قليل. لقد اقتربنا من مدخل الطريق الفرعي. لا توجد إشارة. لا بد أن أنتبه جيداً. كل مرة أتجاوز المدخل...»

ـ 47 ـ

لم أتوقّف، كالمرات السابقة، في الوقت المناسب، مع أني خفّفت من سرعة السير وتهيّأت للمروق من الطريق الرئيسي. اضطررت أن أرجع القهقرى على بعد مئتي متر. كان الطريق المؤدي إلى دار حمدون غير معبّد فطفقت السيارة تهتزّ بعنف، مما جعل مارية تقبض على مقعدها بعصبية. التفتُّ إليها وابتسمت معتذراً.

«كم المسافة بين الدار والطريق الرئيسي؟

ـ أقل من عشرين كيلومتراً.

ـ لمن هذه الأرض الآن؟

ـ لا أدري بالضبط. سنسأل حمدون.»

من يلمح حمدون يفكر في الحين أنه يتشبّه بناظر ضيعة: الطاقية الملفوفة، الجاكتة الجلدية، الجزمة، الغليون، السلوقي، لولا الابتسامة العريضة، ابتسامة الصديق والضيف الكريم. كان واقفاً ينتظرنا على مدخل طريق نصف معبّد تظلّله أشجار الكافور والطقسوس. أوقفت السيارة وقدمت مارية لحمدون، فأبدى فرحة صادقة. ألقت مارية نظرة بانورامية على ما حولها، الأرض الجرداء التي خفت حمرتها بعد سقوط الأمطار الأخيرة، التل الذي يبعد عن خمسمائة متر والذي تتخلّله صفائح أردواز صقيلة متلألئة. قال حمدون: «انتظرت بالحليب والتمر منذ الساعة العاشرة ثم تمشيت وابتعدت عن الدار.» اقترحت أن نركب جميعاً في السيارة. تحرّكت السيارة خبباً وجرى الكلب يسابقها. الدار تبدو من أول الطريق مشيّدة في سفح التل. عندما تقترب منها تكتشف أنها مبنية على مرتفع. سألت مارية عن سر البناء في هذا الموقع. فقادها حمدون وراء الدار ليريها العين المتفجّرة الفائرة بين السفح وربوة تفصلها عن بنايات الضيعة. رأينا الماء يفور بقوة ثم يغوص بعد أمتار تحت الأشجار والرياض. رجعنا على أعقابنا. وجدنا الحليب والتمر على مائدة حجرية تظللها شجرة توت. كانت أرجوحة تتدلّى من أحد الغصون. لا شك أن

ماريا تقول في نفسها: «حتى الفرندة، حتى الأرجوحة!»[97]
نعم، حتى الأرجوحة ولا أطفال في الدار. قدّم حمدون الحليب والتمر حسب التقاليد وجلسنا حول المائدة. قالت مارية. «غريب هذا الصمت!» الدار آهلة، وترى من خلال ستار الكافور بنايات مستطيلة تحيط يميناً ويساراً بالغرفة الرئيسية التي تتقدمها فرندة ذات أعمدة ضخمة. لا أثر لخادم أو عامل ولا يسمع خوار أو مأمأة، حتى السلوقي اختفى. الريح راكدة ومن حين إلى حين يمر في السماء سحاب أبيض شفاف يزيد من حدة النور ولمعان الأشياء. أيام الصيف تسمع الريح تهمهم في أوراق الشجر والأرض تنفلح تحت الأشعة والتبن ينشق.. قال حمدون: «اشتغلت مع الحكومة خمسة عشر عاماً بلا طائل وبجنبي الأوروبي يبني ويعلي. أقول في نفسي. الأرض أرضنا، هم رجال ونحن رجال، لماذا نترك لهم الدنيا يتمتعون فيها[98]، لماذا لا نعاندهم؟ تقربت إليهم واستشرتهم. الحق، ما وجدت عندهم إلا الخير. ثم ذكرني الله بإرث فاغتنمت الفرصة واشتريت قطعة أرض من أرملة كانت في حاجة. دعت لي بالخير: نفعتني، الله ينفعك! فكان دعاؤها السبب. وجدت، بلا تعزيم ولا فقيه سوسي، الماء من أول يوم. وها أنت ترين!.. آه.. لو أردنا، لو تحمّسنا للأرض وخدمة الأرض، لتحول المغرب إلى جنة. ترين ضيعاً تشبه هذه، لكن أصحابها أخذوها من الحكومة جاهزة أو اشتروها من المعمرين. أنا عملت كل شيء بيدي. حفرت وسقيت، حرثت وكربلت. وطبعاً لاقيت صعوبات في البداية. الجيران نظروا إليَّ كما لو كنت تراميت

على أرضهم بلا حق والشيوخ عاكسوني في كل شيء. ثم رأوني أعيش مثلهم ومعهم، أذهب إلى السوق، أعينهم بالمال والأدوات والنصائح ولا أتدخل فيما لا يعنيني، فبدأوا يحترمونني. هذا هو العمل الإيجابي وما عداه كلام غير نافع. هذه هي التربية الحقيقية. أذكر يا ادريس ماذا كنت أقول لك وأنت طالب: إما الجندية وإما الهندسة الزراعية. لكن ادريس تاه. دفنت أمه المصران في غير محله، تحت السور عوض داخل الزاوية. أتساءل دائماً. لماذا يفضل الشبان العيش في المدن والسفر إلى الخارج والعمل مع الحكومة؟ الخير والحرية والاستقلال في الأرض ـ إعطِ الأرض تعطك ـ أنا حقّقت رغبتي. طالما تمنّيت أن أعيش هنا تحت التل. أجلس حول هذه المائدة أيام القيظ أشعر بالحر يطلع من تحت وينزل من فوق ويعز عليّ أن أغادر التل وأقصد الشاطئ كما يفعل غيري من سكان مراكش والنواحي. أمكث هنا كما يمكث الفلاحون من حولي. وهكذا يزداد حبهم لي..

ـ هل تعلم أنه سبق المعمرين في هذه المنطقة بالذات فقهاء جاءوا من مراكش وسوس مع طلبتهم. فبنوا الدور وحفروا الآبار وغرسوا الأشجار وربوا الماشية ثم باعوا الألبان في الأسواق واشتروا الأرض من السكان. يفعلون كل هذا وينصتون إلى الأرض تسبح للرحمان؟

ـ حشرني الله مع هؤلاء الفقهاء. ربحت إذن، يا ادريس، في الدنيا وفي الآخرة. لم أرد أن أزاحم السكان وأتوسّع على حسابهم. بالعكس بعت منذ أربع سنوات كل المساحة التي لم

أستفد منها. تركت الشعير والقمح منذ البداية وفضلت الخضر. أبيعها في المدينة وأشتري الحبوب للماشية من جيراني بالثمن العالي. وعما قريب سأتخلى حتى عن إنتاج الحليب والزبدة، سأتجه نحو إنتاج البذور والزهور.» سألت مارية:

«أين تبيع الزهور؟

- في البيضاء.

- المسافة بعيدة.

- يباع سمك البيضاء في مراكش. لماذا لا تباع زهور مراكش في البيضاء؟ كل شيء مرتبط بالربح وأنا أقنع بربح معقول على مدى طويل.» علقت بدوري:

«في هذا أيضاً تشبه شيوخ زوايا البحيرة»[99]. استفسرت مارية: «تنوي غرس أي نوع من الزهور؟

- هذه فكرة تراودني منذ سنة. لم أشرع بعد في تحقيقها. أمهد، أبحث، أسأل..

- تسأل من؟

- من جرّب قبلي هنا وفي ناحية سوس. عندي أصدقاء أشاورهم..»

نظرت مارية إلى حمدون ملياً ثم قالت: «تستحق أن تنجح في تجريبتك الجديدة.» ثم التفتت إليّ: «أليس من الأنسب أن نواصل السفر الآن؟»

اعترض حمدون: «لماذا الاستعجال؟ لقد حجزت غرفة في

فندق سوس ووعدني المدير بغرفة ثانية. وإذا كانت هناك صعوبة فليرجع ادريس يقضي الليلة هنا. لا داعي للاستعجال.»

ألحّت مارية على ضرورة استئناف السفر فرضخ حمدون.

«لم تري المهمّ. لا بد من زيارة أخرى وقضاء يوم كامل لتري كيف يحلب الحليب ويجز الصوف، كيف تبيض الأفراخ، ولتكتشفي سر الصمت.

ـ سأفعل. هذا وعد.»

ودّعنا حمدون بحرارة وبدون تكلّف. حمدون، الملاّك والناظر، لا الموظف الذي رأيته جالساً، بلباسه الأصفر في مقهى التجار، يترقب.

ـ 48 ـ

«قبل خمسين سنة لم يكن هنا شجر وهذه الطلعة هي الحاجز الطبيعي الوحيد بين سهلي مراكش وابن جرير. لم ينتظروا الغزاة هنا وراء أخاديد تتبعها متارس بل خرجوا من مراكش، البعض على الخيل والبعض على الأقدام، البعض يحمل بوشفرة والبعض العصي، كل واحد قائد رأسه[100].

ـ على من تتكلم؟

ـ أتكلّم على المجاهدين الذين خرجوا من مراكش ليواجهوا الجيش الفرنسي قبل احتلال المدينة. وقف قائدهم يشير إلى الفضاء كأنه يخاطب الملائكة ويقول: تقدموا على بركة الله،

الحب لا يقتل والكور يبرد.

ـ من يعتقد هذا لا محالة مغلوب.

ـ هذا ما يثبته العقل ويرفضه الوجدان. من يدري؟ لو اشتعلت الحرب قبل إبانها، من يدري ماذا كان يحصل؟ على أي حال هذه تخيّلات بلا جدوى.»

بعد قليل:

«لماذا لم تقبلي ضيافة حمدون؟

ـ رفضت أيضاً أن أمكث طويلاً في دار جليل.

ـ لكن قبلت دعوته.

ـ واستمعت أيضاً بسرور لحمدون. لاحظت أنه، مثل جليل، يقول عكس ما تروي عنه. هل يعيش فعلاً في وئام مع السكان؟

ـ لست أدري. يعيش بعض الناس في وئام ظاهر مع جيرانهم ثم يوجدون ذات صباح مقصيين[101] في الحقول، رؤوسهم مشدوخة بساطور. ويقرّر البوليس بعد البحث أن المجرم مجنون وأن المأساة نتيجة سوء تفاهم.

ـ تظن أنه تسلّط على أرض الغير؟

ـ المهم هو الماء. لا أتصور عيناً بمثل هذه الغزارة تبقى مجهولة طويلاً.

ـ هل حاولت أن تعرف الحقيقة؟

ـ لا.

ـ لأي سبب؟

ـ لأن طلاب الحق لا يفصحون عن شيء. ينتظرون في صبر وتوكل يوم الانتقام.

ـ هل يستردون حقهم؟

ـ عليهم ألا ينتظروا طويلاً. وإلا تغيّر كل شيء، حتى مفهوم الحق. قد تنزع الأرض من خصمهم ولا ترد لهم. حصل هذا مراراً لهم ولغيرهم وسيحصل إن هم توكلوا على الزمن. الزمن خداع.»

(نعم. قالها أبي وهو يروي قصة الفقيه الرافعي: الزمن شفاف، والناس رجال ظل ورجال هواء[102]، لا يتفقون أبداً ولا يتفاهمون).

الطريق مستقيم أمامنا. والكتبية تقترب منا منحنية. إحدى عجائب مدينة البهجة[103]. تصل إلى نقطة معينة فتلاحظ بكل وضوح أن الصومعة الخالدة تقترب منك وكأنها تستقدمك. البهجة، المدينة المفضلة منذ تأسيسها لدى الأمراء والملوك، ينسون فيها همومهم ولا يغادرونها إلا مكرهين..

ـ 49 ـ

يطل فندق سوس، الموجود في القطاع غير المبلط من جليز، على الشارع المؤدي إلى المحطة، مقابل مدخل جنان الحارثي[104]. كان في الأصل فيللا كبيرة حولت إلى مأوى لم يلبث أن توسّع إلى فندق بعد ضمّ فيللا مجاورة. أسّسته زوجة أحد الضباط الفرنسيين المدفونين في صحارى الجنوب.. بقايا

جالية تختلف تماماً عن الجاليات الاستعمارية في باقي مدن المغرب. تحس في مراكش بجو الاستعمار الحقيقي: التقارب والتنافر بين الأجناس، التزاوج والتنابذ، التأثير المتبادل. تجد الأوروبي الذي يتكلم العربية بلهجة هوارة والمغربي الذي يخاطبك بنطق باريس. تجد السوري المسيحي المتزوج بيهودية إزمير واليوناني الذي يعاشر راقصة أحواش. تتجاوب في مراكش غرابة الطبيعة مع غرابة الإنسان. ومن خصائص مراكش أن خدم الفنادق وغلمان المطاعم وندّال المقاهي متواضعون ومتأدبون إلى أقصى حد الأدب والتواضع. يخدمونك فعلاً ولا يتبرمون إذا غيّرت رأيك، وعدلت عن كوكاكولا إلى بيبسي كولا أو عن الشاي إلى القهوة. هذا ما يلاحظه السواح ويعبرون عنه بصراحة وهذا ما لاحظته مارية حال وصولها. استقبلها مدير فندق سوس بحفاوة بالغة، طبيعية، غير متكلفة، عاملها كضيفة حقيقية، كأنه كان ينتظرها هي بالذات لا كزائرة بين الزائرات. سبقها إلى الغرفة وتحقّق، وهي تنظر إليه، من أن النافذة تغلق والستار يسدل والبزبوز يحبس الماء والمغسل يفرغ ومصباح السرير يضيء. لم يغادر الغرفة حتى اطمأن على راحة مارية الأنيقة الوضاءة. لما نزلت إلى الشارع قالت إنها تشعر أن الشمس والهواء، أن الطبيعة بكاملها ترحب بها في مراكش وأنها لم تعهد في أي بلد آخر هذا الاهتمام بشخصها. جلست إلى مائدة في مطعم المنارة وقالت بعد أن اختارت أكلتها: «هذا الخادم يحرص جلياً على أن أرتاح وأرضى وأن ترسخ في ذاكرتي الأوقات التي أقضيها عنده. واجبي أن أكتب تحية للجنوب

ولإنسان الجنوب.» قلت ونحن في طريق العودة إلى الفندق: «هذه روعة مراكش، ننتعش بها جميعاً، أجانب وأبناء البلد، لم أشعر بها وأنا تلميذ في المدرسة. كنت أشعر بانحطاط المدينة، ببؤسها وشقائها. كلما غادرتها كنت أقول في نفسي:

هل عاقبها الله على إثم ارتكبه سكانها في غابر الأزمان؟ لنستغفر لها الله طالبين من قدرته تعالى أن يفجر ينابيع النفط من باب دكالة إلى الصخور لكي تعود مدينة حقاً كما كانت أيام الناصر والمنصور[105]. كلما سمعت كلاماً عن ألوان سوق الدباغين وحيوية جامع الفنا[106]، ضحكت لأتناسى أشباح بريمة وأگدال.

ـ هل تغير الأمر اليوم؟

ـ تغيّرت أنا. ما زلت أتمنّى فورة النفط والغاز. لكن في انتظار ذلك اليوم الموعود..

ـ تفعل ماذا؟

ـ أتذوق حلاوة مراكش، مثلك. أتضايق من السواح، لكن لماذا أحرم نفسي من التمتّع بهدوء المنارة قبيل المغيب. البلدة جميلة رغم أن أعين أطفالها تبرق كما تبرق عيون أطفال الهند والسند، الذين لا يستهلكون القدر الكافي من الحليب واللحم.

ـ تمتّع بجمال المدينة، لماذا المبررات؟»

تلقيت السؤال أو التعليق كالصفعة. رفعت الطرف فوجدت مارية تبتسم ببساطة وتلقائية. تساءلت: براءة أم مكر؟ نضج أم خبث؟ موضوعية أم استخفاف؟ لا أظن أنها تعمّدت جرح

عواطفي. فكّرت ملياً ثم قرّرت أن أعترف.

«جئت هنا، إلى هذا الفندق بالذات، قبل عشر سنوات رفقة ثلاث نساء سويسريات، فتاة وأمها العجوز وزميلتها، لنحضر المعرض السنوي الذي كان ينظّم في جنان الحارثي. وصلنا قبل الغروب بقليل وقضينا نصف الليل نستمع إلى الدقّة[107]. نشاهد الرقصات الفولكلورية، نشرب الحريرة ونتذوّق المحمص. عدنا إلى الفندق على الساعة الواحدة والنصف. أخذت أم الفتاة المفتاح وتمنت لنا ليلة هادئة ثم اتجهت نحو الدرج. ما إن وضعت رجلها على الدرجة الأولى حتى زلّت قدمها وسقطت على الأرض. انطلقت ابنتها مستفهمة: هل تحسين بألم؟ أجابت الأم: لا. لكن البنت أرادت أن تتحقّق من الأمر. فحملنا الأم إلى المستشفى العمومي. وجدنا في قسم المستعجلات ممرضاً فقط وانتظرنا ساعة كاملة قبل أن يصل المتدرب. صور ذراعها فكشف عن شق في المرفق وقرّر أن يجبره في الحين. انتهت العملية وودعنا المريضة. وفي الصباح ذهبنا لنعودها فعلمنا أن الطبيب المشرف على المستشفى قد أعاد التصوير ولاحظ أن المسمار الذي استعمله المتدرب قصير. فكسر العظم وأعاد الجبر. هذه حوادث تقع مراراً في كل مستشفيات الدنيا. لكن في مستشفى مراكش كان المتدرب مغربياً والطبيب فرنسياً. قبل الحادثة كانت الجماعة لا تنقطع عن الثناء وبعدها لم تتوقف عن النقد. غادرت الأم المستشفى بعد أربعة أيام. خرجنا من مراكش في اتجاه آسفي وأخطأنا الطريق. فقالت الأم: يا للأسف، رحل الفرنسيون قبل أن يضعوا إشارات السير! قطعنا مسافات شاسعة

عرتها الرياح من التربة وكشفت عن أحجار جيرية ملساء وأنا أسمع التعاليق المسمومة. طالت عليّ الطريق كما لو كنت في سفر إلى المريخ. مرّت عشر سنوات على هذه التجربة وما زلت أبرّد عواطفي الملتهبة وأستحيي من الاستجمام بهواء مراكش.»

استمعت مارية بأدب وانتباه إلى قولي، واقفة على عتبة الفندق. لما انتهيت حرّكت رأسها مشيرة إليّ أنها فهمت قصدي. ثم دخلت إلى البهو وطلبت مفتاح غرفتها. ودعتني قائلة إنها ستقضي العشية منكبّة على إتمام عمل مستعجل. مكثت بعض الوقت أحاور مدير الفندق في شأن الغرفة التي وعد بها حمدون ثم خرجت إلى الشارع أصطاد ذكريات الصبا.

- 50 -

رجعت إلى الفندق وقد غابت الشمس وراء قمة جليز وأنارت المصابيح الكهربائية الأسوار وتلألأت الكتبية وشرع السواح واللصوص والبهلوانيون وأصحاب المغامرات من كل الأعمال والأصناف والأجناس يتقاطرون على ساحة جامع الفنا. وجدت مارية، لابسة معطفها الأحمر، في حوار مع مدير الفندق. أومأت لها من بعيد أني أنتظرها في الشارع. بعد قليل التحقت بي وتمشينا نحو مبنى البريد حيث تصطف العربات الخيلية في انتظار السواح لنقلهم إلى جامع الفنا. المسافة بين جليز والكتبية قصيرة لكنها مثيرة لعواطف وإحساسات دفينة. إذا قطعتها في عربة مكشوفة في الوقت المناسب وبالسرعة المناسبة ستتذكرها

طول حياتك أينما كان وطنك. بهاء مراكش لا يؤثر في الحين. قد تشعر أول الأمر بالملل والخيبة. قد تشك في حقيقة بهجة مراكش حتى تفارقها ويطول الفراق ويتضاءل الأمل في العودة إليها، حينئذ تنفجر الذكريات وتحس إحساسات عنيفة لم تجربها وأنت داخل أسوار مراكش. كنزها اللاوعي مدة طويلة لتغمر في الظرف المناسب وعيك المتلاشي. حينئذ تعيش حقيقة سحر المدينة الحمراء، وشمة التاريخ في بيداء إفريقيا. فتذهب إلى مطاعم شرقية لتستحضر طعم أكلة لم تهضمها بسهولة أول ما أكلتها وتغشى دور العرض أملاً في التقاط صورة خاطفة لباب الربّ[108]. مارية بجانبي في العربة، تلتفت يميناً وشمالاً، ترفع بصرها إلى السماء الصافية المتباعدة ثم تنظر إلى أشجار الليم وإلى الفيلات ومباني الإدارة خلفها. تحدّق في كل شيء.. كأنها في انتظار.. مثل جميع السواح وهم يمرون على الطريق السحري بين جليز والكتبية بعد المغيب. توقفت العربة وراء الحديقة المظلمة وسط ازدحام كبير.

قلت لمارية: «يدعي الأوروبيون أن منظر جامع الفنا عجيب وفريد. لكننا كنا إلى عهد قريب نتهم فرنسا بأنها حافظت على هذه البلهوانيات لتعطي الدليل على ما كانت عليه البلاد قبل الاستعمار. وبالفعل منعت بعد الاستقلال. ففرغت الساحة وانكشف بؤس المدينة وفرّ السواح. فقال أحد الوزراء: لا حياة لمراكش بلا سياحة ولا سياحة بدون جامع الفنا. فانتعشت البهلوانيات من جديد.

ـ وأنت تحب أم تكره هذه الساحة؟

ـ جئت إليها مراراً. شاهدت بها القرود تنطّ والحيات تنفخ وتئز. استمعت فيها لخرافات القصّاص وأكاذيب المتطببين وما وجدت فيها أبداً ما يشرح النفس.

ـ لماذا تأتي إذن إلى مراكش؟»

شددت بقوة على ذراع مارية. فتوقفت في الحين متسائلة. يمر الناس من حولنا كالأشباح، لا تكاد تنيرهم القناديل الزيتية المعلقة على أبواب الدكاكين ولا الفنارات الموضوعة على الأرض. تعلو الميدان همهمة تتداخل فيها أصوات بني آدم وألحان الغيطة ودقات الطبول وترجيعات الكمان. وبين الأصوات المتداخلة تتميز نغمة حادة، صافية، عنيفة، حنينية، نغمة تستميل حتى الأذن غير المستأنسة:

«انصتي، يا مارية، من أجل هذه النغمة آتي إلى مراكش. لا أعرف لها أصلاً ولا أفهم الكلمات الملازمة لها. لكن أعرف أنها تعبّر عن شعوري في كل وقت وحين.»

ابتسمت مارية وقالت: «لنقترب إذن من مصدر هذه النغمة!» اخترقنا طريقنا بين **الحلْقات** الغاصّة بسكان المدينة وسواح الداخل والخارج. لم نلتفت إلى الطبيب الذي يشفي بمسحوق واحد كل الأسقام ولا إلى مربي القرود ولا إلى منوّم الحيات ولا إلى راوي العنترية. قادتنا النغمة السحرية نحو حلقة **الدكة**. رأينا أربعة فتيان، لابسين فرجية بيضاء وحزاماً مطرزاً ورزّة، يتقدمون خطوتين ويتأخرون بانتظام واتزان تحت قيادة رئيس مسن يضرب على القنبري ويستخلص منه تلك الأنغام الفضية الصافية.

أبصرت وانسلخت عن الحاضر. رأيت الرؤيا. رأيت المجموعة ترقص في الليل المنير على حافة صهريج المنارة. تجري أشباح المشاهدين على سطح الماء المتلألئ كلهيب تنفخ فيه الريح. تقترب الفتاة الإنجليزية من الراقص الشاب وتنسى نفسها وأهلها ومركزها. تنسى أنها أوروبية بين الأوروبيين، مدعوة إلى حفلة فولكلورية ينظمها، تكريماً للأجانب، باشا مراكش. تنسى الأعراف والقواعد والأصول وتستسلم للنغم الصافي الذي اقترن بوجه راقص. تندفع باحثة عنه من حومة إلى حومة، من زقاق إلى زقاق، من بيت إلى بيت، تلمح وجهه في شبه ظلام فتحث الخطى ثم تتيه وراء سراب والنغم يوتر أعصابها ويقودها إلى حيث لا تدري. تركب حافلة في جامع الفنا، تتسلق الجبال، تخترق الثلوج وتنحدر نحو بلاد النخيل. تكتري بغلة وتطرق القصور[109]، الواحد بعد الآخر، سائلة: أين هو؟ أين هو؟ حتى خنق الفايجة[110]، ومنها تتوغل في أوطان الصمت والعطش والعبادة. تمشي فوق الرمال يقودها النغم الفضي والريح من ورائها تعفو الأثر[111].

ـ 51 ـ

التفتُّ فلم أرَ مارية. حدّقت هنا وهناك، في حلقة ثم في ثانية، جلت على الدكاكين التي تحيط بالميدان ثم رجعت إلى حلقة الدكة وانتظرت. لم أعد أسمع النغم السحري ولا أرى الرؤيا. انتظرت ثم بحثت من جديد، يميناً وشمالاً، بدون

جدوى. لم أرَ مارية. غبت عنها فغابت عني. ماذا أفعل؟ أسأل المتفرجين: هل رأيتم امرأة رزينة، أنيقة، وضاءة، تلبس معطفاً أحمر؟ الساحة مليئة بنساء يلبسن معاطف ملونة والسواح في حركة مستمرة، يعترض بعضهم البعض في الفنادق والأسواق، تحت الكتبية وداخل قبور السعديين[112]، بموعد وبغير موعد.. ثم أدركت أني منذ البداية اقتنعت أن مارية لم تبتعد من الحلقة بضع خطوات، لم تذهب إلى دكان لتشتري مجدولاً أو شكارة. منذ البداية اقتنعت أني لن أراها مجدداً في جامع الفنا. لماذا هذه القناعة؟ لعله من تأثير الرقصة. مشيت نحو مدخل الجوطية وأوقفت تاكسي. خلعت مراكش رداءها النيّر وعادت إلى حقيقتها: بلدة فقيرة، جائعة، تستثمر الماضي وتستعطف السواح. وشعرت من جديد بما شعرت به عندما رجعت إلى الفندق تاركاً في المستشفى المرأة السويسرية. فتح لي حارس الليل وأعطاني غرفة بدون تلكؤ. لم أقل له شيئاً عن مارية. ها أنذا في الغرفة المظلمة أعيد في مخيلتي شريط الأحداث. إنها جاءت لتذهب إلى ورجان وهل ذكرت ورجان مرة واحدة؟ كانت على موعد، على موعد.. هذا هو شعوري العميق. لم تطلب مني أن أرافقها. أنا صاحب الاقتراح. وأثناء السفر هل ساهمت في الحوار؟ لا. اكتفت بالإنصات. من حين إلى حين طرحت سؤالاً من باب الأدب واللياقة. كانت مشغولة، نعم مشغولة، خاصة في دار حمدون. لست مسؤولاً. جاءت إلى المغرب وإلى مراكش بدافع أجهله. ورافقتها.. من بعيد.

- 52 -

استيقظت باكراً كما يستيقظ سكان مراكش بعد أن نمت نوماً عميقاً بلا حلم ولا رؤيا. لم ترجع، هذا ما كنت أتوقّع. لو كانت بجانبي وسردت عليها قصة فتاة اختفت في جامع الفنا لعلقت بصوتها الهادئ المتزن: يختفي الناس كثيراً في البلد الذي أعيش فيه حتى أن البوليس لم يعد يهتمّ بهم. يقوم الشخص في الصباح على الساعة المعتادة، يتحمّم، يحلق ذقنه، يرتدي بذلة العمل، يفطر وهو يلقي نظرة على جريدة، يلبس المعطف والقبعة، يأخذ المحفظة ومفاتيح السيارة. يقبّل زوجته، يفتح الباب ويتبخر في الفضاء.. ثم تمرّ الأعوام، يكبر الابن ويصبح صحفياً أو بوليسياً أو جاسوساً، يعثر صدفة في إحدى جولاته، بعيداً عن مدينة صباه، على عجوز يحمل اسماً يختلف عن اسم أبيه بحرف أو حرفين، يقتنع أنه أبوه، يتردّد هل يكلمه أم لا، وأخيراً يقرّر أن يتركه وما اختار لنفسه. نعم، حكاية طريفة. لكنني في مراكش ومارية تحمل جوازاً أجنبياً. أقامت في هذا الفندق وما زالت حقيبتها في الغرفة. والأجنبيات لا يختفين في هذا البلد دون أن ينتبه لاختفائهن أحد. لا يمكن أن أقول: لأمر ما اختفت مارية! وأركب سيارتي عائداً إلى البيضاء. قمت متباطئاً. اغتسلت وارتديت ثيابي وأنا أفكر أن كل أسفاري إلى مراكش تنتهي بمفاجآت. جئت إليها أول مرة ظاناً أني في سفر اكتشاف وإذا بي أعيش في دار مظلمة في درب مظلم، كلما خرجت صباحاً عددت الأزقة لكي لا أتيه وكلما عدت مساء

خشيت أن أدفع داخل دكان تفوح منه رائحة الحريرة والشواء. وجئت إليها آخر مرة لأزور أحد أقربائي لا أدري كيف انتهى به المطاف هنا ليموت ويدفن. مراكش تسحر العقول وتبخر الأجسام، تماماً كما صوَّرها مفتيها في رحلته الشهيرة وليس من الغريب أن يصدر منها الإعلان عن خراب الدنيا[113].. (من **الهوى إلى الهاوية بين قوم ليسوا بمؤمنين محبوساً في ديار المغرب)**[114]. نزلت من الغرفة فوجدت أن مدير الفندق قد خلف حارس الليل. سلمت عليه وأعطيته المفتاح ولم أكلمه في شيء. خرجت إلى الشارع ساهياً عن الطبيعة وعن المارة. اشتريت مجموعة صحف واخترت مقعداً منزوياً في مقهى النهضة. أمرت بالإفطار وانغمست في قراءة أخبار العالم، المهمة منها والتافهة.



ـ 53 ـ

«جئت لأخبر بحادث قد يكون خطيراً.

ـ كيف؟

ـ اختفاء امرأة أجنبية.

ـ معنى اختفاء؟

ـ نعم، اختفاء. وصلت البارحة من البيضاء مع المرأة. نزلت في فندق سوس. ذهبنا في المساء إلى جامع الفنا. بحثت عنها بعد قليل فلم أجدها. كانت واقفة بجانبي تتفرج على حلقة الدكة

ثم تبخرت.. الكلمة مناسبة.. تبخرت. انتظرت برهة، مشيت عبر الساحة ثم رجعت إلى الفندق. أخرت إخبار البوليس إلى اليوم لأتحقق من الأمر.»

سألني الرئيس عن وقت الحادث ثم غادر المكتب. عاد إلى مقعده بعد دقائق وسأل:

«عندك معلومات أخرى؟

ـ المرأة مغربية الأصل. تربطني بها علاقة عائلية. ذهبت إلى الخارج للدراسة. مكثت سنوات في فرنسا ثم انتقلت إلى أمريكا. منذ شهر ونصف وصلت إلى الدار البيضاء. قالت إنها تشتغل في التعليم وتهيئ بحثاً عن المغرب. مكثت شهراً في الصديقية ثم عادت إلى البيضاء وأخبرتني أنها تود أن تسافر إلى ورجان لتزور امرأة عجوز لها بنت متزوجة في أمريكا. رافقتها إلى مراكش لهذا السبب. هذا كل ما أعرف.

ـ لماذا قلت إن الحادث خطير.

ـ قلت قد يكون خطيراً. المرأة تحمل الجنسية الأمريكية. أتصور أن زوجها سيبحث عنها وتتدخل السفارة وتتكلم الصحف عن أمن السواح وعن أشياء من هذا القبيل.»

قام الرئيس والتفت إلى الحائط يفحص خارطة ملونة ثم جلس بكل هدوء.

«لا بد أن تبحثوا عنها هنا وفي ورجان وأن تخبروا السفارة..»

قاطعني الرئيس: «ستعطي كل المعلومات إلى قسم أمن الأجانب. سيذهب معك شرطي إلى الفندق ليتعرّف على

مخلفات المتغيبة. لكن لا تتكلّم في شيء، بالنسبة لنا الحادث لم يقع.» رنّ الجرس. جاء عون وقادني إلى مكتب آخر. استمع الضابط إلى حكايتي من أولها إلى آخرها دون أن يسجّل أي شيء. لما انتهيت من كلامي سجّل اسمي وعنواني وعنوان مقر عملي ثم قام ليرافقني إلى الفندق. طلع مع المدير إلى غرفة مارية. بعد عشرين دقيقة نزل وفي يده ورقات مجموعة في ملف. سألني:

«ستمكث في مراكش؟

ـ لا، سأعود إلى البيضاء.

ـ وستبقى في العنوان نفسه؟

ـ نعم.

ـ سنتصل بك إذا دعت الحاجة.»

حيّا الضابط مدير الفندق وانصرف.

طلبت الحساب.

«حتى حساب الأمريكية؟

ـ نعم. حتى حساب الأمريكية.»

لما ناولني الورقة لم أر فيها سوى رقمي الغرفتين. فسألت عن اسم مارية العائلي الجديد وسمعته لأول مرة.

ـ 54 ـ

«تريد الحق، البنت ما عجبتني. . جاءت للمغرب وما بغت تشوف المغرب، زربانة.

ـ لكن، يا حمدون، هي مغربية تعرف البلد. ونعاملها كأنها أجنبية، سائحة من جملة السائحات.

ـ مع ذلك رأيي أنها اختفت من ذاتها.

ـ هذا رأي البوليس بلا شك.»

إذا كان هذا هو الواقع فالحادث أخطر.

* * *

4
البيضاء

- 55 -

يخيّم على البيضاء منذ شهر دجنبر جو مكهرب. تقول مصلحة الأرصاد إن كتلاً من الهواء البارد تتسرب إلى المغرب من سيبيريا عبر فجوة بين منطقتين من الضغط المرتفع، الأولى فوق جزر الآصور والثانية فوق آسيا الغربية. لكن رغم الغيوم الكثيفة ورغم تنبوءات الأرصاد المتسرعة لم تسقط قطرة من المطر. ظننت أني أعيش في تريستا التي لم أزرها قط. . النساء ملفوفات في معاطف صوفية سوداء، المقاهي تنيرها نهاراً مصابيح كهربائية، السينمات مفتوحة ومزينة. طقس سيبيري بلا مطر ولا ثلج. تغيّر الجو وتغيّرت عاداتي. أصبحت آكل وجباتي في مطعم صيغون وأتناول القهوة في مقهى القدح. لا أفكر في شيء سوى عملي. أسدل الستار على تطلعاتي. إذا انقطع الأمل أزهرت الدنيا. أحب مهنتي وأحب المدينة تحت سمائها المسود كأن طير الرخ نشر جناحيه فوقها. أذهب إلى الجريدة قبل الوقت المعتاد وأتأخر فيها بلا لزوم متردّداً بين مكاتب المحررين.

استغل رئيس التحرير الموقف وطلب مني أن ألخّص بعض ما كتبته الصحف الأجنبية عن المغرب والعالم العربي. نشر بعض ما كتبت بلا توقيع وأهمل البعض الآخر.

أمامي مجلة أنيقة ملونة تغري القارئ ليسافر بعيداً (عند قوم ليسوا بمؤمنين في ديار المغرب)، على صفحتها الأولى تخطيط يوحي بفتاة تركب حماراً وتتسلق طريقاً جبلياً وعراً. قال رئيس التحرير: «الق نظرة على هذا المقال وقل لي هل يستحق أن يشار إليه بمدح تحت عنوان: اهتمام الأجانب بالمغرب يتزايد، أو بنقد تحت عنوان: الغرب يتحامل على الإسلام والمسلمين.» شرعت في قراءة المقال شارد الفكر أتجاوز جملاً ومقاطع بأكملها ثم بعد حين شعرت لسبب من الأسباب أني عدت رغماً عني أربعة أسابيع إلى الوراء، أشاهد حلقة الدكّة في جامع الفنا، لكني لا أرى الرؤيا، لا أرى الفتاة الإنجليزية تخترق جبال الأطلس وتنحدر نحو القصور والزوايا المتناثرة بين الرمال والنخيل. أرى مارية تقصد إلى حيث يعيش الأروي وينبت التنوب. فأقرأ وألخص في ذهني المقال كما قد يصدر في الجريدة لو يقبله رئيس التحرير.

تنزل بك الطائرة فتظن أنك في لوس انجليس قبل الحرب العالمية الثانية. يسير بك التاكسي في شارع مستقيم تحيط به فيلات غارقة في الزهور فتحسب أنك تقطع شارع العميدة[115]. تدخل إلى إحدى الفيلات فيخاطبك ضيفك بما تسمعه كل أحد في برنامج «لقاء مع الصحافة.» ثلاث عشرة ساعة من الطيران لترى وتسمع ما كنت ترى وتسمع على شاطئ المحيط الهادئ.

العالم إذن قرية صغيرة. أين المغامرة؟ أين الاكتشاف؟ أين النساء الملتحفات المحتجبات المشربلات؟ أين الرجال المعممون المجلببون؟ (هذه قطعة يخيّل إليّ أني قرأتها من قبل). تبتعد عن العاصمة، تصل إلى بلدة محصنة، ترى النساء **بالحايك** والحجاب، تقتحم السور، تطرق الباب، تدخل إلى بهو، تشرب الشاي، تسمع خرافات وأحاجي فتلاحظ أن المرأة تحمي حقها بكل الوسائل، الظاهرة منها والخفية، وأن الرجل لا يتصور مصلحة عامة. الكبرياء؟ الشرف؟ الترفع؟ هذه أخلاق كانت عندما كانت. لا وجود للعرب في بلاد العرب! (هذه جملة سمعتها وسجلتها) أأغادر البلاد غاضبة يائسة؟ فكرت وقلت في نفسي: لا بد أن آخذ المبادرة، لن يحن إليك الجبل (هذا حديث محرّف يحلو للأوروبيين أن يحتجوا به على واقعية وآدمية النبي)[116]. اتركي السوق واقصدي الخيم[117] (هكذا يترجم الأوروبيون الفرق بين العرب العاربة والعرب المستعربة). لست سائحة مثل سائر السواح، إنك تحجين إلى منبع الحرية وموطن الصفاء (هذه فكرة رائجة بين سكان العواصم).

ـ 56 ـ

... انطلقت من جامع الفنا في سيارة عتيقة يقودها شاب تغطي وجهه لحية كثة سوداء، يلبس جلباباً قصيراً ورزة عريضة. غادرنا المدينة من باب الخميس مستقبلين جبال الأطلس الكبير، تغشانا عتمة تتخللها أضواء باهتة تلوح من جانب الطريق أو من

بعيد داخل الحقول. بعد عشرة أميال، اختفت الأضواء وعمّ الظلام وبدأت السيارة تلهث. ضاقت الطريق وكثرت منعرجاتها واضطر السائق أن يتقهقر إلى السرعة الأولى. كلما تقدمنا صوب الجبال اشتد الظلام وتسابقت خلف النافذة أشباح كأنها عمالقة تهرول إلى مشور البلد. أضاءت مصابيح السيارة، رغم ضعفها، متسعاً على يمين الطريق فأوقف رفيقي السيارة ونزلت في الليل الهادئ أنظر، وكأني على متن طائرة تحلّق عالياً، إلى المدينة وقد أفرغت من محتواها البشري ولم يبق بادياً منها إلا مخمس نير الأضلاع مرقش المساحة ـ مشموم ذابل وضع على الأرض في عزلة صارخة. . كوكب مضيء تائه في الفضاء اللامتناهي ـ طال بنا السفر وشعرت بالبرودة تجمّد أصابع رجلي وتدغدغ أرنبة أنفي. أغمضت عيني لعلي أروّض النفس على النوم رغم تكتكة المحرك المتعثر. توقّفت السيارة مرة ثانية. فوجدنا في استقبالنا رجلين، كل واحد منهما ملفوف في **هدّون**[118] ويحمل فناراً كبيراً. تقدمنا نحو جدار يشرف على درج يؤدي إلى قبو فسيح. جلسنا على حصائر مغطاة **بحنابل** وبطانيات خفيفة. مكثنا في الظلام صامتين ساعة أو يزيد ثم خرجنا من القبو. رأيت على ضوء فنار حمارين مربوطين قرب الجدار. أعطاني أحد الرجلين هدوناً ثقيلاً كالمشمع ثم أعانني حتى امتطيت الدابة. كنت أشم في الليل روائح غريبة متتابعة غير متجانسة، منها الثقيل المفعم بمركبات الحياة ومنها اللطيف المكوّن من عناصر معدنية لا أثر فيها لصناعة البشر. أرى الظلام يتحرك، يسودّ ويبهت، تخترقه من حين إلى حين وببطء مهول أشباح ضخمة ينفصل بعضها

ليتقدم نحونا بينما يبتعد البعض الآخر في اتجاه معاكس. وأخيراً انفصلت السماء عن الأرض وتتابعت الروائح اللطيفة منبئة بالنشور وعودة الحياة. انفصلت الصور ثم ذابت ثم تحددت وانتصبت منتصرة في أفق تغشاه سحب رمادية. فبصرت قدامي الدليل الذي ساق حماري في الظلام وأبصرت ورائي الرجل الذي رافقني، صاحب السيارة، راكباً هو الآخر على حمار وأبصرت أشجاراً متشابكة الغصون كقضبان الحديد المذاب وأبصرت الطريق الضيقة الملتوية تمتد على سفح هضبة وتشرف على واد حجارة وأعواد متناثرة. لم يغيّر الدليل من سرعة مشيه، رغم بزوغ الفجر. واصلنا السير مساورين الهضاب والتلال حتى أواسط الصباح حيث دخلنا إلى منفرج مكسو بأشجار كثيرة منتظمة تفصل بينها من حين إلى حين أكوام من تراب وبقايا جدران متهدمة. وقف الدليل فبادر رفيقي إلى النزول ليساعدني. تمشينا نحو حائط متداع يحجب درجاً غائراً في الأرض. نزلنا الدرج باحتراس فوصلنا إلى رواق تتفرّع عنه عدّة غرف ضيقة تتلقّى النور من كوى مربعة. دخلنا إحدى الغرف وجلست جنب رفيقي على حصير تعبة متضايقة. عاد الدليل بعد دقائق بصينية بلاستيك عليها كأسان يفوحان برائحة القهوة. رشفت من كأسي وشعرت بالدفء يدبّ في جسمي فزال عني بعض الضيق. مكثنا طويلاً صامتين لا نسمع كلاماً ولا صفيراً ولا حساً ولا أزيزاً ولا ما يوحي بحركة الطبيعة. انتظار بعده انتظار. استثقلت في البداية الثواني والدقائق ثم نسيت الزمن وطفقت أنتقل بحرية مطلقة بين عوالم الوجدان مستعيدة حياتي في القارات الثلاث. لم أعد

أحس بالبرودة ولا بالجوع. كنت من حين إلى حين أشعر بإحدى رجلي تثقل فأسرحها وأدغدغها فأحس بدبيب النمل طول الساق والفخذ. جاءنا الدليل نفسه بالصينية ذاتها عليها كعك وشاي فائر وزيتون أسود. أكلنا ثم عاودنا الانتظار. لم أسمع صهيل خيل ولا وقع أقدام. لم أعرف هل برقت الشمس ذلك النهار أم اكفهرّ الجو ونفخت الرياح. كنت أنتظر في غرفة ضيقة مظلمة كالخلوة. وبدون سابق إنذار دخل الرجل كأنه فكرة تجسدت. تبعه الدليل حاملاً الفنار. وضعه وسط الغرفة واختفى. بدا لنا الرجل شاباً مقصوص اللحية، يرتدي الخنيف[119] وعلى رأسه رزة صفراء. جلس على الحصير جنب رفيقي وتكلّم طويلاً بلغة تعلّمها عندما كان مقيماً على شاطئ المحيط الهادئ[120]. كان كلامه كله تشبيهات وأمثالاً واستعارات. ذكر زلزال 1906 وقال إنه لم يحدث بسبب موقع المدينة، على حافة أكبر فجوة أرضية، ولكن لأن المدينة شيّدت منذ البداية على النفاق والبذخ وكنز الذهب وعمّ فيها الجور والكذب والسرقة فباغتها الزلزال، ليطهر الأرض من آثار الفسق والزيغ.. ذكر الجذور الضاربة في بطون الأرض وأعماق النفوس والتي تنتعش في مخابئ الأهرام وتذبل من قلة النور، الجذور التي بانعدامها يرتفع من الدنيا الصدق والإبداع.. تكلّم عن ناس الفوق وناس التحت، عن الناظور والمستنقع، عن السماء والجحيم، عن الوعد والعقاب.. ذكر الفيضان ونوح وهو يختار من كل جنس زوجاً ليجدِّد الإنسانية بعد أن فسدت إلى غير إصلاح.. تكلّم طويلاً، والغبش يحجبه، بلسان العائدين إلى

بلاد الظلم بعد انكشاف الحق. . قال إنه يعيش فوق أرض لم يطأها أي دخيل وأن القائد منع التجوال فيها لإيمانه أنها تضم كنوزاً ترجع إلى عهود غابرة وتحتوي على معادن عادية وأخرى نادرة. فكان لا يتنقل إلا مصحوباً بكوكبة من فقهاء سوس ومهندس يحمل آلة جيجر. أقنع بذلك أحد المعمرين الكبار فساعده لدى السلطة ومات الاثنان واثقين أنهما أغنى من روتشيلد وآغا خان. . قال إنه لا يهتم لهذه الخيرات، حقيقية كانت أو وهمية، لأنه يرفض التعامل مع سكان المستنقع الذين ينقلون إلى الأحياء، وحتى إلى الجماد، الجراثيم الفتّاكة وأنه سيحذو حذو القائد ويمنع المنطقة على غير أهلها لأن فيها روح البلاد وسر انبعاثها. . ثم أثنى على الأستاذ الذي اشتغل معه. قال إنه أنقذه من اليأس وسهّل عليه المقام على شاطئ المحيط الهادئ، إلا أنه لم يكن سعيداً في الغربة، لأنه شعر أكثر من مرة أنه على وشك الانسلاخ عن ذاته والانحلال في ذات الغير. . لم يعرف فيها الراحة لأنه لم يكن من الذين يعيشون في المستقبل وللمستقبل ولأنه رأى كثيراً من المرح وقليلاً من السعادة، حركة دائبة وحياة فارغة. . قال إن الكآبة التي شاهدها فيها هي التي أوعزت إليه أن يعود إلى نفسه وبلده وأن ما لاحظه في أرض الغربة من تحكم في إرادة الأشخاص ومن تأثير في ذاكرة الأفراد قوى عزيمته على المحافظة بأي ثمن على استقلاله الذاتي. . لن يطلب أي شيء من أي أحد. . قال إن اختياره هو اختيار كل سكان المستنقع لو رفعت الغشاوة عن أفئدتهم وأن ساعته ستحين. . ثم أكّد أنه تعود على الصبر وأنه لا يخضع للزمن. .

أخفق الذين سبقوه لأنهم لم يفهموا الهدف الحقيقي من ترك المستنقع واللجوء إلى المرتفع. لم يتحرروا من عوائدهم المستنقعية. فلم ينفعهم حجهم إلى القمة. رأوا في انسحابهم مجرد وسيلة فكانوا قليلي الصبر ونزلوا قبل الأوان فهزموا حيث ظنّوا أنهم انتصروا.. قال إن صبره هو لن ينفد مهما طال الانتظار وكثرت المغريات.. أكد أنه يرفض مسبقاً كل تشبيه بين ما يقول وما قيل في زمن سابق أو في بلد آخر، قريب أو بعيد.. ثم قام فودعني وكلفني من جديد بتبليغ تحياته إلى زميله الأستاذ.. طلعت الدرج وراء رفيقي الشاب. وجدنا على وجه الأرض الحمارين والدليل وسمعت في الظلام نغمات خافتة كأنها تتسرّب من كوى البيوت التحتية، متثاقلة، صافية كنغمات القيثارة اليابانية. رنت في أذني مدة طويلة ونحن نسير بتؤدة نحو السيارة لنعود بين سكان المستنقع... وفي بلاد البلغة والجلباب ما تزال السماء صافية والأرض نقية، ما تزال الحياة نابضة والأخلاق عالية. الاكتشاف في متناول كل سائح إذا قرر أن يكون سائحاً حقاً وأن يبحث بشغف عن ينابيع الحكمة الخالدة...

ـ 57 ـ

قرأت القطعة بسرعة مركّزاً انتباهي على النقاط المهمة. كل شيء فيها غير محدّد زمنياً وجغرافياً. يمكن أن يكون اللقاء قد تمّ في غار من أغوار **الأند** كما قد يكون النص مقتبساً من مقالات القرن الماضي التي تصف جبال الأطلس. ليست القطعة

وصفاً ولا تحليلاً ولا رواية ولا تقريراً. لهذا السبب بالذات تعلّق بها ذهني. غادرت قاعة التحرير. نزلت إلى المطبعة وأنا أفكر في مضمون المقال. تحقّقت أن عدد الغد جاهز غير محتاج إلى مزيد من التصحيح وقصدت الباب الخارجي. اقتربت من السيارة وأخرجت المفتاح من جيبي وبغتة فهمت القطعة، انكشف لي معناها الخفي. إنها رسالة مكتوبة بالشفرة، تستعمل كلمات أولية مكرّرة على نسق مضبوط، قابلة للخزن في عقل إلكتروني. إنها سلسلة أجوبة مقولبة يطعم بها العقل فيجيب بعد حين بنعم أو لا فتثبت على خارطة العالم إبرة جديدة تحمل علماً أحمر أو أبيض. أدرت المفتاح في القفل وجلست داخل السيارة، باردة، مظلمة، صامتة، وفي عمق أعماقي سؤال مكبوت يدق بإصرار أبواب الوعي: هل يمكن؟ هل يمكن؟. وفي عمق الأعماق أعرف أنه لو تكسر سد الوعي وانفجر السؤال كالفقاعة لأدركت في الحين أن الأمر لم يكن ممكناً وحسب بل كان منذ البداية، حسب كل المؤشرات، ضرورياً متحتماً. فأرغمت ذهني على التلهي بأسئلة هامشية: هل رجعت مارية إلى مراكش؟ كيف غادرت البلاد دون أن تضبط؟ إلى أين وصل تحري البوليس؟ من يكون هذا الشخص الغامض؟ هيبي؟ مجذوب؟ أسئلة للعقل وما يجدي العقل عندما يسطو اللاوعي؟ أجلس في السيارة والبرد يجمّد أوصالي ورطوبة الليل تحجب عني العالم الخارجي. أتألم. أفكر. أندم ولا أبكي. ياما بكيت على مارية وأنا شاب! لو عصر جسمي عصراً لما سقطت منه دمعة واحدة. لم أبك عندما قالت لي المرأة إنك لا تعرف للزوجية معنى ولم أبك

عندما جبت الشوارع أتغنى بأسماء لم يعد لها مسمى ولم أبك عندما مات الأب بغتة ولم أبك عندما فتحت أبواب السماء وانهطل المطر على المدينة يوم سبت أسود ولم أبك عندما اختنق نعمان وازرق جسمه[121]. انسكبت مني الحياة منذ أعوام وتركتني ظلاً أسعى. مات سليمان وبقي الهيكل منتصباً على عصاه. فجاءت نملة ونخرت العصا فسقط هيكل سليمان وزعزع أركان المعمور. أنا أيضاً ظل متحرّك لكني لا أملك عصا سليمان. لو صرخت صرخة لما تردَّد صداها في أرجاء الحي. لو صرخت لصُمّت أذني داخل السيارة الباردة المغلقة ولما سمع الصرخة زملائي في المطبعة. رجعت إلى شارع محمد سميحة والضباب يكتسح المدينة كبخار غاز قاتل. طلعت إلى شقتي الكئيبة غير المكنوسة في الطابق العاشر واضطجعت على الفراش وفي ذهني نفس السؤال: هل يمكن؟ هل يمكن؟. . كلنا مسؤولون، الكاتب والممثل والخطيب وحتى التمتام. إننا نعيش تحت أنظار الخصم. . الإعراب عن كل شيء أم الصمت؟ أردِّد السؤال ولا أجد في الترديد مؤاساة. هل أقوم وأشعل النور وأخطّ سطوراً في ورقة أعلقها بدبوس على الحائط؟ كان هذا ملاذي قبل أن أرى مارية. بعد المراحل الصعبة التي قطعتها على طريق التجرد[122]، ها أنا الآن أخاف أن يكون لنداءاتي وأفكاري وإحساساتي ومواقفي مضمون غير ما أريد ونتائج غير ما أتمنى. حزن **تريستا**[123]. . في هذه الليلة، أنك تسكن **تريستا**، المصابيح لا تضيء والمارة لا يتوقّفون ومن البحر تتبخر روائح المرض والموت. . من شارع محمد سميحة إلى مطعم

الصخيرة[124] طريق الحزن وطريق الموت. .

ـ 58 ـ

ليست البيضاء كالقاهرة. ليست كباريس. قد تشبه الإسكندرية. قد تماثل أثينا. ماذا ينقصها؟ قلب؟ ميدان تتوحد فيه المدائن؟ تحتاج إلى استقرار القاطنين بها. هذا ما ينقصها، حب ساكنيها. لو توقفوا عن التفكير في غيرها لنظروا إليها نظرة أخرى، لجعلوا من المقاهي أندية ومن الطرق ميادين. ينقصها جيل وليس لي صبر لأنتظر طلوع الجيل الجديد.

ـ 59 ـ

. . اليوم ولد لي ولد سميته نعمان[125]. اليوم مات لي ولد اسمه نعمان. عاش نعمان ثلاث عشرة ساعة. لن يكون لي أبداً في هذه الدّنيا ابن اسمه نعمان. رفضت أن أرى المولود بعد التجربة المرّة السابقة. أشفقت على نفسي أن أرى من جديد حركات تنبئ ببداية الاختناق، أن ألاحظ من جديد أصابع تزرق ثم تسود. في المدينة مئات المؤسسات الصحية ولم نجد في أي واحدة منها قرعة للتنفس. ربما كانت موجودة ثم ضاعت لأن بلادنا لا تهتم بعد بأمراض الحضارة. هذا ما قال لي الطبيب. كنت أظن أن الأطباء يكذبون على الأمهات فإذا بهم يكذبون أكثر على الآباء. تسأل عن سبب الإسقاط فلا جواب عند الطبيب مع

أنه كان يدعي أنه يراقب الأم مراقبة تامة وأنه مستعدّ لمواجهة أي احتمال والآن يلجأ إلى التعليلات الفلسفية. رد فعل الطبيعة، الانفصام بين العقل والبطن، رفض الأمومة. يستغل الطبيب دائماً العواطف: إما الأمل وإما الصبر والتجلد. طوال النهار وأنا أتنقل بين أحياء المدينة، من المطار إلى قصر البلدية ومن مكتب شركة الطيران إلى المصحة. سجل المكلف بالحالة المدنية في جوازي اسم المولود لكي أنقله إلى أوروبا وتساهلت الشركة في سعر تذاكر السفر وجاءت الممرضة من باريس وأعارتنا عصبة الصليب الأحمر الفرنسية القرعة بكل معداتها. وبدا الانتظار من الثالثة إلى الحادية عشرة. كل دقيقة أطول من سنة، مقياس انسياب الزمن شهيق مولود يصارع الاختناق. أغالب نفسي لأبقى خارج الغرفة لكي لا أراه يدافع عن حقه في الحياة لصالحي أنا، لتحقيق أملي أنا. ما أكبر أنانية الآباء! مرّت الثواني والدقائق والساعات والممرضة تحكي تجاربها المهنية التي انتهت كلها بانتصار الإنسان على الموت. نستمع إليها، نصدّق كلامها، نتحرّر من هموم الدنيا ونتناسى دواعي اليأس. انتصار قد يعوّض عن إخفاقات أخرى كثيرة. وتأتي لحظة الوداع فنغادر المصحة والممرضة تحمل القرعة كأنها سلة بيض. تنطلق بنا سيارة الإسعاف مسرعة عبر الشوارع الفارغة وتمرق قرب المطار إلى طريق خصوصي لتقف بنا أمام سلم الطائرة. نصعد ونجد مقاعد الصف الأول محجوزة من أجلنا. تضع الممرضة القرعة فوق المقعد وتبحث عن نشيبة فلا تجدها. لا بد إذن من إيجاد أسلاك طويلة لربط القرعة بمولد الكهرباء الخاص بالطائرة. أنظر إلى

حركات الممرضة الدائبة الرصينة وأدرك بغتة أن القرعة لم تسخن أثناء الانتقال من المصحة إلى المطار. انخفاض الحرارة هو الخطر على المولود. ماذا سيحصل في باريس والطقس أبرد والمسافة أطول والسير أبطأ؟ تسوّى الأشياء ونتهيّأ للإقلاع. يصعد طبيب المطار ليودعنا. يحدّق في المولود عبر الزجاج، يطلب من الممرضة أن تفتح القرعة، يمس الصدر النحيف ويقول بهدوء: «إنكم تنقلون جثة!» تتّجه إليّ الممرضة مغلوبة يائسة: «معذرة! إني آسفة.» أسمع الكلمات بثبات. أودع الممرضة وأهبط دروج السلم وراء الطبيب وهو يحمل الجثة. نقطع المدرج في الظلام، نجتاز قاعة الانتظار، ندخل المستوصف. يسألني: هل لك سيارة؟ أرد بالإيجاب. يذهب معي إلى السيارة ويقول: رافقتك إلى هنا لتأخذ الجثة بلا صعوبة، وإلا كان عليّ أن أحتفظ بها وأسلمها للمشرحة لتتم الإجراءات الإدارية. شكرته على العناية وودّعته ثم جلست في السيارة جنب جثة مولود لم يعش سوى ثلاث عشرة ساعة. انتظرت طويلاً في الظلام غائباً عن الزمن والألم واليأس المتسرب إلى الفؤاد. أفكّر في كيفية دفن الوليد: الإعلان عن الوفاة، الحصول على تصريح، اختيار المقبرة، إجراءات عملية تلهي عما سواها. أوقدت المحرك واتجهت نحو المدينة النائمة، أحمل إلى المقبرة ولدي الميت. في أقل من يوم انكشف لي سر الحياة وفاجأني الموت. كانت المصحة مقفلة. رنّ الجرس طويلاً في غرفة داخلية وبعد حين فتحت الباب إحدى الممرضات. فهمت الواقعة وأظهرت عطفاً كبيراً. أعانتني على

إخراج الجثة الملفوفة في بطانية صوفية من السيارة. أخذتها مني ووضعتها في غرفة فارغة ثم عرضت عليّ أن أنام في المصحة ووعدتني أنها لن تخبر الأم بشيء. غرقت في النوم بدون منوّم، من كثرة التعب أو لأني لم أستوعب بعد حقيقة الموقف. وفي الصباح آنست من نفسي هدوءاً غير متوقع. خرجت لأقوم بإجراءات الدفن فتعلمت أمرين: إن الأطفال يدفنون في قواديس وأن الفوارق الاجتماعية لا يمحوها الموت. جئت بقادوس صغير وبقطعة كتان أبيض. تعجّبت الممرضة أول الأمر ثم ظنّت أنه طقس من طقوس الديانة الإسلامية. فتطوّعت لتكفين الجثة ووضعها في القادوس. وقفت إزاءها أشاهدها تسوِّي الذراعين وتسرح الساقين وتدخل بجهد الجثة في جوف القادوس ثم حملت القادوس في السيارة إلى المقبرة. وضع في قبر ضيق. غطي بالتراب. رشّ التراب وقرئت على القبر آيات من القرآن. أتساءل ثم أتساءل رغماً عني: هل لمولود يوم روح؟ ودعت القرّاء وغادرت المقبرة ثم ذهبت إلى الشاطئ هادئ النفس بارد الأعصاب، أرى أمامي الصيادين واقفين فوق الصخور بين الأمواج يصطادون حيث تصب قواديس المدينة. لا أحد يتعجّب أن يكون السمك في هذا الشاطئ كثيراً ولذيذاً ومعطراً. أسمع من حين إلى حين همهمة السيارات تتوقّف أمام مطعم الصخيرة المشهور بطهوه السويسري وحلوياته النمساوية. أنظر وراء المطعم فأرى بناية مستشفى الأمراض العقلية وأنظر أمامي فتعلو في الأفق المضبب رافعات المرسى.. وحيداً مع الألم واليأس، لا الدموع تنفع ولا الأشعار ولا تعليلات العقل. أكتشف أن

الألم هو وجود الإنسان في الكون ولا شيء سواه. مهما طال المكوث على الشاطئ لا بد من العودة إلى المصحة ومغالطة الأم.. وبعد أيام سيحصل لا محالة الخصام وتبادل التهم. من المسؤول عن موت المولود؟ لم يبقَ من الحلم إلا الاسم، اسم نعمان، مسجلاً في جواز سفر. لولا هذا الأثر لظننت فعلاً أن ما حدث أضغاث أحلام.

ـ 60 ـ

... «صباح الخير يا دكتور!

ـ صباح الخير. هل من جديد؟

ـ حصل لي منذ يومين الحادث نفسه، الذي ذكرت لك المرة الفارطة. كنت أمشي أمام مكتب بريد البرصة وإذا بي أشعر بفقدان التوازن، كأني أجذب جذباً إلى اليسار. جلست على درج المكتب مدة وجيزة، لا تعدو بضع ثوان فعادت الأمور إلى حالها. كنا تكلمنا في المرة السابقة عن الحرارة ولباس الصوف والضغط...

ـ هل قمت بالتحليلات؟

ـ نعم.. هذه النتائج مصحوبة بنتائج المرة الفارطة.

ـ لقد درست نظائر التحليلات السابقة. ناولني النتائج الجديدة فقط.

ـ نصحتني يا دكتور بالحركة والسفر وتعاطي التنس ونسيان

الهموم مهما كان مصدرها، لكن طقس هذه الأيام غير مواتٍ، كأن بلدنا حوّلت من قارة إلى قارة!

ـ نعم. طقس غريب. هل تناولت الأقراص بانتظام؟

ـ لم أغفل عنها يوماً واحداً.

ـ لا أرى جديداً في هذه الأرقام.

ـ لكني أشعر بضغط في صدري خاصة عندما أضطجع.

ـ هل حدث حادث في حياتك المهنية أو في علاقاتك العائلية؟

ـ لا. أعيش وحيداً، كما تعرف، ومنذ أسبوعين تخليت عن عملي في المطبعة.

ـ هذا خطأ. لا بد لك من شغل.

ـ الحادث هو الطقس. أشعر كأننا في حالة كسوف، كأن طائراً ضخماً جثم على المدينة.

ـ هذه تخيّلات تولدها البطالة. لا تنسى، أنك لست مريضاً. لا شيء في هذه التحليلات يشير إلى مرض من أي نوع. كل ما عندك انعكاس في التركيب الدموي. هذه حالة نادرة، لكن إذا كانت طارئة فلا وسيلة إلى تغييرها. الطبيعة تصحح نفسها بنفسها. عليك إذن بالصبر. وإذا كانت أصلية منذ الولادة فهي إذن طبيعية.

ـ أوليست كل الأمراض عبارة عن تغيير في تركيب الإنسان العادي؟

ـ الأمراض التي نهتم بها نحن الأطباء تؤثر في الوظائف: الهضم، الحركة، البصر، الذاكرة.. إلخ. الظاهر أن جسمك يقوم بكل وظائفه بكيفية مرضية.

ـ هناك وظائف باطنية.

ـ هذه خارجة عن اختصاصاتنا. صدقني، لا تعطي لهذا الحادث أكثر مما يستحق من أهمية. عش عيشتك العادية. تحرّك واشتغل وسافر وتريض.. ستنسى، وحتى التركيب الدموي، إذا كان طارئاً، سيعود إلى ما كان عليه. في وسعك أن ترى أطباء آخرين، هنا أو في الخارج، لتزيد اطمئناناً. إلا أن رأيي لم يتغير. عبرت عنه وأعبِّر عنه بوضوح لأنك واعٍ ومثقف. لو كان الحادث خطيراً، لو كانت له علاقة بالقلب أو بالدماغ لمت منذ زمن. يمكن أن تعيش إلى الأبد، على الأقل في مفهوم بني آدم. تعلق بالحياة تتعلّق بك الحياة. والطقس سيتغيّر أيضاً في النهاية ويجلو عن البلد هذا الضباب الكثيف.

ـ أعيش إلى الأبد أو أموت غداً.

ـ شأن كل إنسان. هذه فلسفة!

ـ أعرف أنك تهتم بالفلسفة يا دكتور. أما زلت تدرس مسكويه[126]؟

ـ نعم. سألقي قريباً محاضرة في موضوع الحكمة عند مسكويه. تشبث بالحياة، هذه نصيحة الطبيب.

ـ هل لنا موعد آخر؟

ـ غير ضروري. إلاّ إذا جدّ جديد.

ـ شكراً، يا دكتور، شكراً.

ـ 61 ـ

ـ طبيب أوروبي يدرس مسكويه. مَنْ بين الأطباء المغاربة في هذه المدينة سمع بمسكويه؟ شكراً، يا طبيب مسكويه! كلامك حلو لطيف مهذب. لكنه مثل كلام كل الحكماء يحتمل معاني متباينة. امرح، سافر، تلذّذ: نصائح لمن أشرف على الهلاك. تعلّق بالحياة: دعوة لمن له رغبة في الحياة، لمن غلبت عليه إرادة الحياة. إني أعرف مسبقاً ماذا سيحدث وأسمع مسبقاً تعاليل طبيب مسكويه. لقد انتصرت غريزة الموت على غريزة الحياة. آه! لو تشبث بالحياة! ذهب ضحية طقس متقلب!

ـ 62 ـ

الموت في البيضاء. الموت في البندقية. الموت على شاطئ الرون. موت الجاسوس الذي أصمه رفاقه عقاباً له على مهنته الدنيئة. يتجوّل في طرق المدينة الكالفينية ولا يسمع أزير الجماز وهو يعبر شارع الرون. يرى الناس من بعيد يلوحون ولا يفهم. يدهمه الموت ولا يفهم[127]. الموت في الضواحي الكئيبة على فراش من أوراق الدردار[128]. هل فهم؟ وهل يفهم الإنسان إلا بعد أن يفوت الأوان؟

ـ 63 ـ

الهجرة رمز النفس الإنسانية، قرارها فناؤها. بدأ الإسلام مهاجراً. ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. هاجر المسلمون إشفاقاً على الأمانة ثم غلبهم الحنين. من يدري؟ لعل رأس البلاء العودة بعد الهجرة. مَن منا لا يرجع إلى مسقط رأسه؟ مَن منا لا يحنّ إلى وطنه وإن عمّه التجبر والظلم والاستعباد[129]؟

ـ 64 ـ

«إياك تمشي وتخليني وحدي الصيف كله!

ـ غير سر يا وليدي، كن هاني. .

ـ حلفي، ما أنت ماشية!

ـ أوليدي سر ويكون خير.»

لم تكذب عليّ قط. لماذا تتركني وحيداً في الدار طول الصيف؟ أوَليس أبي هو الذي يرفض أن أرافقها؟ وصلت إلى المدرسة المزينة بالأعلام، المليئة بالتلاميذ والآباء، لحضور حفلة نهاية السنة الدراسية. ستطول الحفلة وقد تغادر الجدة الدار لتصل إلى الضيعة قبل الغروب. طلع المدير إلى المنصّة ورحّب بالحاضرين ثم تلاه رئيس المجلس البلدي الذي كان يتعثّر في كلامه ثم تقدّم تلميذ من الصف الثالث فجوّد آية من القرآن ثم تبعته مجموعة رتّلت قصيدة طويلة ألّفها أستاذ اللغة العربية ثم

طلع المدير مرة ثانية إلى المنصّة وشرع يسرد أسماء التلاميذ المتفوّقين ويوزّع عليهم الجوائز. كانت أنظاري مشدودة إلى عربة خيلية رابضة تحت الصابة وإلى جدتي ملتحفة بحايك أبيض تحاول أن تركب بدون إعانة أحد. نبّهني زميل لما نطق المدير باسمي فتقدّمت إلى المنصّة وأخذت الكتاب المغلّف ورجعت بهدوء إلى مقعدي. بعد دقيقة قمت وكأني أبحث عن المرحاض. ابتعدت شيئاً ما عن الجمع ومرقت نحو الباب. طفقت أعدو قاصداً طلعة الزاوية. انحدرت في رمشة عين من درب الشيوخ وقبل أن أدرك زقاق القائد الرجراجي أحسست بغم قاتل يهيمن عليّ فسالت الدموع على خدي. وجدت الباب مقفلاً فازداد يأسي. طرقته بقوة فخرجت من الباب المقابل عمتي وكأنها كانت في انتظاري. قالت إن أبي ترك عندها المفتاح وأنها لا تعرف أين ذهبت جدتي. أعطيتها الكتاب المغلف ورجعت على أعقابي. لقد ذهبت وتركتني وحيداً. ماذا أفعل الآن؟ لعلها غادرت الدار منذ زمن قصير. إذا سرت في الطريق الوحيد المؤدي إلى الشاطئ قد ألحق بها. انطلقت قاصداً القنطرة. مررت أمام المدرسة وقد ودعها التلاميذ والآباء. لم يأبه أحد لطفل يقطع القنطرة وحده ويبكي ويشهق في عشية يوم من أيام يونيو في إحدى سنوات الحرب[130]. رغم الوعد تركتني جدتي في المدينة وحيداً غريباً مهجوراً وذهبت لتقضي أيام الصيف مع أختها في ضيعة قرب البحر. أختي لم تقعد في الدار لتستقبلني بعد العودة من المدرسة وأبي لم يحضر حفلة توزيع الجوائز. أمشي جنب الطريق غائباً عن كل ما حولي وأردّد في نفسي:

وعدت وأخلفت! قبلتني على العتبة وعادت إلى غرفتها لتتهيأ وتنتظر العربة الخيلية. لم أذكر أي شيء عن الطريق، عن المارة، عن الحقول. كم قطعت من مسافة؟ كم مضى من زمن؟ رجعت إلى وعيي عندما شعرت بتغيير في لون الجو. كانت الشمس ما تزال ساطعة والسماء صافية لكن ظل أشجار الكافور المحيطة بالطريق السيارة تكاثف واتصل بعضه ببعض وقوي حفيف الأوراق حين تمسها الريح. تثاقلت مشيتي وخامرني الشك: هل ألحق بالعربة قبل حلول الليل؟ لم أحث الخطى لأسابق الظلام بل تباطأت وشعرت بالغربي يسوق برودة المساء وضباب البحر. انهالت الدموع على خدي وقلت: لن أصل إلى حيث ذهبت جدتي. سيلحقني الليل وأنا في أرض غريبة. يتنازع قلبي الجزع من الظلام ومن المجهول والخوف من فراق جدتي.

«فاين غادي، يا وليدي؟

ـ عند جدتي.

ـ فاين ساكنة؟

ـ ما.. ما عرفت.

ـ واش سماك الله؟

ـ..

ـ ولد من؟

ـ..

ـ فاين ما مشيت ما توصل حتى يطيح الظلام وما ترجع للمدينة حتى يقرب الليل. يا الله! اركب وارجع لوالديك.»

كان الرجل يمتطي حماراً عالياً ويلبس جلابة **ضرعية**[131].
مددت له يدي فجرّني إليه وركبني أمامه. لم أتوقف أثناء العودة عن البكاء والشهيق. أوصلني الرجل إلى حانوت أبي وقد غربت الشمس. استمع أبي إلى الرجل يقصّ عليه الواقعة فشكره ولم يوبّخني بل طلب مني بصوت هادئ أن أذهب إلى الدار. وبعد خمسة عشر يوماً عادت جدتي من رحلتها. دخلت العربة الخيلية إلى وسط الدرب وخرج الجيران ينظرون إلى جدتي سافرة. تقدّم أبي نحوها فظننت أنه يريد أن يعانقها. فإذا به يدخل ذراعيه وراء ظهرها وتحت فخذها. يفعل السائق نفس الحركة من الجانب الآخر. يخلف الاثنان أصابعهما ويحملان جدتي كالطفل المختون وهي لا تتحرك ولا تتكلم. مشيا نحو السطوان ببطء كبير ودخلا إلى حجرة الاستقبال وسط الجيران الذين كانوا ينظرون إلى جدتي نظرة هول وإشفاق. تساءلت: ما لها تبتسم ولا تتكلم؟ ما لها تحدِّق ولا ترمش؟ عزمت على الدخول إلى الحجرة فردّني أبي: «نانا عيانة. خليها تستريح. سر والعب شوية في الصابة.» عدت إلى الصابة حيث كان السائق **يوشوش** مع الجيران. لم أستطع التقاط كلمة من كلامه فسرت إلى رأس الدرب لأتفرج على السيارات التي تجتاز المدينة. متى أسألها لماذا أخلفت وعدها ولماذا قطعت زيارتها؟ ها هي الآن بيننا، لم أعد وحيداً، ستستريح وستعود الأمور كما كانت من قبل. لكنها لم تسترح ولم ترجع أبداً الأمور إلى سابق عهدها. لم أسمع أبداً صوتها ولا رأيتها أبداً واقفة أو ماشية منذ أن عادت في تلك العشية من أيام الصيف. لم تبرح أبداً حجرة الاستقبال تحيط بها

بالدوام مساند ومخدات. كلما قربت منها نهرني أبي: «خلي نانا تستريح.» منذ ذلك اليوم لم تقربني ولم تكلمني وإنما كانت تحدِّق ولا ترمش، تحاول أن تبتسم ولا تستطيع[132].

ـ 65 ـ

قالت المرأة القصيرة: «اخرج يا وليدي وادع الله يطلق أميمتك.»[133] أتذكَّر الغرفة، فارغة من الأثاث. لا أرى فيها سوى صندوق ضخم ركبت عليه أمي كما لو كان سرجاً، متدلية الساق، عارية الفخذ. لم أتذكر وجهها ولم أثبت على أي وصف من أوصاف جسمها. هل كانت الغرفة مظلمة أم عجزت عن رؤيتها بسبب انتقالي المفاجئ من المراح المشمس الساطع إلى الحجرة المواربة الباب المنعدمة النوافذ. لم تمهلني المرأة القصيرة حتى يتعوَّد بصري على العتمة. أتذكر حضوراً مبهماً. قد تكون **القابلة**. طلبت مني المرأة القصيرة أن أدعو الله، ربما لتخرجني من الغرفة حتى لا أشاهد أمي تتمايل على الصندوق وتولول. غادرت الغرفة المظلمة ورفعت وجهي إلى السماء الصافية وتضرّعت إلى رب الأرباب أن يحمي أمي من كل شر وأن يعضدها في محنتها. بأي دعاء نطقت؟ هل حفظته أو لقنتنيه المرأة القصيرة؟ هل حاولت أن أدخل ثانية على أمي الذاهلة عني وعن جسمها أم غادرت الدار إلى الصابة؟ لا أتذكر. كل ما أعلم يقيناً هو أني لم أستعمل أبداً، بعد ابتهالي إلى الباري، أول كلمة يتعلّمها الطفل وتكون ركيزته في الحياة. أصبحت أسمع وأقرأ

كلمة «أماه» ولا أستعملها أبداً.

- 66 -

أقول لزميلي ونحن نغادر بعد العصر جامع الفقيه الفارسي في درب الخوخة:

«الله؟ واش هو السحاب اللي يدوز مرة مرة في السماء؟»[134]

انتهى

الهوامش

(1) يفكر ادريس في أسماء يعطيها لمولود منتظر. انظر الملحوظة 32.

(2) الحسن بن محمد البربهاري واعظ حنبلي توفي سنة 329هـ.

(3) أبو حيان التوحيدي (ت 414/ 1023) أحد ممثلي الفكر المتنوّر في الأدب العربي.

(4) حي في الدار البيضاء.

(5) خدم في الجيش الفرنسي ثم عيّن قائداً على مدينة أزمور. انظر ملحوظة 88.

(6) مجاز مسقف. انظر أوراق المقطع 2، ص 17.

(7) انظر الغربة (ط 6، سنة 2000) الملحوظة 120.

(8) الإشارة إلى لوس انجليس وبالضبط إلى حي بفرلي هيلز.

(9) أحجية.. معميّة.

(10) اميلي كين التي تزوّجت بشريف وزان أواخر القرن الماضي.

(11) مارية القبطية التي ولدت للنبي ولده إبراهيم.

(12) وفية للبلد وللزوج. قارن مع حكم امرأة العم المقطع 42.

(13) الغربة، ص 134.

(14) مارسل بروست، توماس مان، ريلكه، هيمنغواي، إلخ.

(15) الحنفية، الصنبور.

(16) لوحات زيتية شهيرة معروضة في متاحف البندقية.

(17) قصة توماس مان.

(18) لوحة جورجيونه مهمّة في تطور تقنيات الرسم.

(19) پيجي كوكنهايم ابنة ووارثة مؤسس متحف نيويورك الشهير.

(20) روني ماكريت الرسام السوريالي البلجيكي.

(21) تجنّست مارية بعد زواجها بأمريكي.

(22) أحداث 1907 التي مهّدت لاحتلال المغرب وفرض الحماية عليه من جانب فرنسا.

(23) البحث داخل في عملية مسح عام.

(24) **الغربة**، ص 83.

(25) التحرش الجنسي.

(26) الإعلان عن اختفاء المهدي بن بركة.

(27) جورجيو باساني مؤلف **النظارات الذهبية**.

(28) ديونه بارنز كاتبة أمريكية تجريبية مؤلفة **شجر الليل** الذي نشر بمقدمة من الشاعر إليوت.

(29) بلادي ميري (مارية السفّاكة) كوكتيل من فودكا وعصير طماطم.

(30) يشتغل ادريس في جريدة معارضة.

(31) المعرّي وطه حسين.

(32) المولود قبل الشهر التاسع. موت نعمان المولود قبل الأوان. انظر الملحوظة 121.

(33) حديث. تأسف النبي على موت ولده إبراهيم.

(34) اطالو زفيفو، من سكان تريستا ومؤلف رواية **سنيليتا** (شيخوخة).

(35) مقهى الوجوديين في باريس بعد الحرب العالمية الثانية.

(36) بيت الفرزدق.

(37) غبريل جرمان. انظر **أوراق**، ص 44.

(38) معروف أن الباشا الجلاوي الذي حكم منطقة مراكش كما لو كان أميراً مستقلاً كان شريكاً لعدد كبير من رجال الأعمال الفرنسيين.

(39) المقصود مسيو ولتر صاحب مناجم زليجة شرق المغرب. ترك لزوجته ثروة هائلة. موّل بناء دار المغرب في الحي الجامعي وكانت توزع كل سنة على الطلبة منحاً تحمل اسمه.

(40) من كبار المخرجين السينمائيين الألمان.

(41) كان جليل سبّاقاً لما يعرف اليوم بالسياحة الجنسية.

(42) الحيلة. تقال عادة في حق اليهود.

(43) جمال عبد الناصر.

(44) مربط الخيل.

(45) سيرة نصف خيالية للفقيه الرافعي. انظر الغربة، الملحوظة 112.

(46) لا مالك لها.

(47) سيبة (ثورة) 1894 بعد وفاة السلطان الحسن الأول.

(48) بندقية عتيقة.

(49) أي من ميناء طنجة.

(50) مولاي عبد الله أمغار (تيط قديماً).

(51) نسيج سميك يلبس في فصل الشتاء.

(52) في الحين. بدون انتظار.

(53) أعمدة السقف.

(54) لم يترام عليها أحد بعدُ.

(55) كوة.

(56) سكّين.

(57) نسيج من قرية بزو.

(58) متاعك.

(59) رتبة عسكرية في الجيش المغربي القديم.

(60) الولي أبو شعيب السارية. الغربة، ملحوظة 96.

(61) استمرت حلقات الحكي في أسواق المدن المغربية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

(62) لتهدئة الثورة قبض المخزن (الدولة المغربية) على القواد الشرعيين وأبدلهم أحياناً بقواد السيبة.

(63) المعروف على فقهاء سوس تعاطيهم صناعة السحر.

(64) معارضة بين منظورين إلى التاريخ: الروماني المركز على السياسة والإسلامي المركز على الأخلاق.

(65) أي التعلق بشيء مادّي يعود إلى عهد النبي وهو نوع من الوثنية.

(66) السلطة والمامورية.

(67) وزغ الشيطان.

(68) إشبيلية.

(69) آخر سلاطين المغرب المستقل.

(70) الجنرال موانيه.

(71) انتخابات 1960 و1962.

(72) تتعجرف، تظهر عدم الانقياد.

(73) عمرو بن العاص رمز الدهاء السياسي عند العرب المسلمين.

(74) النازح من البادية.

(75) تهدّمت.

(76) سنة 1943.

(77) الباكالوريا.

(78) في المدينة الأسطورية التي يتخيلها دريس ويتشبث بها إلى حدّ أنه لا يريد السفر إلى الصويرة الحقيقية.

(79) مقتطف من مذكرات ادريس. آخر لوريق.

(80) تكثر الرياح في الصويرة كما في جلّ المدن الساحلية.

(81) مقدمة لنقاش شعيب والراوي في نهاية أوراق.

(82) قرية بين مراكش وآسني في قلب الأطلس الكبير.

(83) قبيلة تسكن وراء الأطلس المتوسط.

(84) يوجد كازينو مشهور في مراكش منذ أيام الجلاوي.

(85) محطة بين البيضاء ومراكش.

(86) جنوب لوس انجليس في اتجاه سان دييغو.

(87) حي شعبي فقير يحاذي جامع الفنا.

(88) تعرف بحملة الجنرال لاموث سنة 1917.

(89) الحي العصري (الأوروبي سابقاً) في مراكش.

(90) كانت للأمريكان قاعدة جوية في ابن جرير القريبة من مراكش.

(91) قرية توجد بين اكدير وتارودانت كان يقطنها العديد من المعمرين.

(92) الميل والنباهة.

(93) أكاديمية عسكرية أنشأها الفرنسيون لتكوين ضباط الصف. تخرّج منها عدد من قادة المغرب الإداريين.

(94) تلميح إلى خراب دار القيادة، المقطع 34.

(95) حصل مثل هذا الأمر كثيراً بين 1907 و1912 في مناطق الدار البيضاء ووجدة.

(96) حوادث 1957. مات فيها عدد من المعمرين. واد زم قرية شرق البيضاء.

(97) تمادياً في تقليد المعمّرين الأوروبيين.

(98) معارضة كلام الفقهاء: الدنيا جنّة الكافر.

(99) منطقة جنوب غرب مراكش.

(100) معركة سيدي بوعثمان سنة 1913 بين الجنرال منجان ومجاهدي أحمد الهيبة بقيادة مربّيه ربّه.

(101) صرعى.

(102) بدو وحضر.

(103) مراكش.

(104) حديقة يوجد فيها ملعب لكرة القدم. تقام فيها أحياناً المعارض.

(105) الناصر الموحدي والمنصور السعدي.

(106) إشارة إلى مناشير وزارة السياحة.

(107) نغمة ورقصة خاصتين بمراكش. تتبارى في شأنها أحياء المدينة.

(108) أحد أبواب المدينة. والرُبّ نوع من الشراب.

(109) القرى المحصّنة في المناطق الجبلية والصحراوية.

(110) منطقة بين سفح جبل الأطلس والصحراء.

(111) مشهد من فيلم تجريبي أخرجه الناقد الإنجليزي غيفن لامبرت الذي سكن طنجة مدة طويلة. ولهذا الفيلم شبه برواية بول بولز الشهيرة السماء الواقية التي حولها إلى فيلم المخرج الإيطالي برناردو برتولوتشي.

(112) أحد أهم مآثر المدينة.

(113) الإشارة إلى ابن الموقت صاحب الرحلة المراكشية.

(114) السهروردي، **رسالة حي بن يقظان**.

(115) أحد شوارع لوس انجليس الرئيسية.

(116) يساق الحديث هكذا: دعا النبي الجبل إليه (ليكون ذلك معجزة) فلما لم يستجب الجبل قال ببساطة: إذا لم يأت الجبل إلى محمد فمحمد يقصد الجبل. وهو بالطبع حديث مزور.

(117) البازار مقابل الخيمة أي خساسة التجار مقابل كرم وإباء البدو. فكرة خلدونية.

(118) برنوس صوفي ثقيل يقي من البرد.

(119) جلباب قصير يلبسه سكان المناطق الجبلية.

(120) سان فرانسيسكو عاصمة حركة الهيبي في السبعينات.

(121) يعدّ ادريس الفواجع التي لحقت به وربما شوّشت عقله.

(122) أولى خطوات الرياضة الصوفية لتحرير النفس من علائق الدنيا.

(123) تخلّى التاريخ عن تريستا كما تخلت مارية عن ادريس.

(124) من أرقى مطاعم البيضاء إلى نهاية السبعينات.

(125) من هنا تبدأ عملية انتكاسية. يتذكر ادريس أحداثاً مؤلمة تعود إلى صباه كما لو كان يغوص في نفسه وهي عملية تؤدي حتماً إلى التفتّت والاندثار.

(126) مسكويه مؤرخ وكاتب وحكيم معاصر لأبي حيان التوحيدي (ت 421/ 1030).

(127) رواية جوزيف كونراد بعنوان **تحت أعين الغرب**.

(128) انظر الملحوظة 26.

(129) مقتطف من مذكرات ادريس.

(130) سنة 1941.

(131) منسوجة من صوف الغنم الأسود.

(132) حادثة تعود إلى نهاية الطفولة. شلطة أدت إلى شلل. فاعتقد ادريس أن ذلك كان عقاب جدته على عدم وفائها له. فهو متألم على ما حصل للجدة ونادم على سوء ظنه بها.

(133) أول فاجعة ألمّت بإدريس هي موت أمه على فراش الولادة وهو ابن السادسة كما لو كانت الفواجع اللاّحقة، وضمنها خيانة مارية، متولدة عن الأولى.

(134) هذه نهاية الغوص في ذاكرة ادريس وسنّه الرابعة.

فهرس المفردات العامية المغربيّة

ـ عمارة	: رمية نارية	82
ـ غمولة	: أثر الرطوبة	83
ـ غيطة	: آلة طرب	131
ـ فحص	: منطقة خارج سور المدينة	84
ـ فرجية	: لباس خفيف	79
ـ فلقة	: آلة تنكيل	78
ـ فنار	: قنديل	131
ـ فيّق	: أيقظ	79
ـ قابلة	: مولدة	163
ـ قادوس	: وعاء الماء	61
ـ قنبري	: آلة طرب	131
ـ كابوط	: سترة	14
ـ كربل	: قلب الأرض	120
ـ كسّب	: تربية المواشي	84
ـ كمية	: خنجر	78
ـ ليم	: نارنج مرّ	130
ـ مجدول	: مفتول	133
ـ محاجية	: معمية، لغز	17
ـ مخالطة	: شركة مع الأجانب	84
ـ مخدة	: وسادة	69
ـ مخزني	: عون مسلح	79
ـ مراح	: صحن الدار	77

عبدالله العروي

اليَتيم

بعد خمس عشرة سنة من الاستقلال، تغيّر المغرب وعاد مرتعاً لـ «جليل» (أخلاقه أخلاق الوسطاء)، و«حمدون» (ناظر ضيعة على النمط الإنجليزي). لم يبقَ فوق المسرح سوى إدريس في عراك متواصل مع الماضي وفي مجابهة مرة مع الحاضر: فواجع عائلية. إخفاقات زوجية ومهنية، صدمات سياسية.

تعود مارية.. ثم تختفي..

يتساءل إدريس.. يتخيّل أموراً، ثم يعتقدها. فتحتد أزمته الوجدانية وينزلق بسرعة على منحدر الذكرى والتصابي: «انسكبت مني الحياة منذ أعوام وتركتني ظلاً أسعى».

قصة خريف يحكيها رجل فتلته الوحدة وشاخ قبل الأوان..

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان
ص . ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب